علي بن سالم الورداني

الرّحلة الأندلسيّة

تحقيق

عبد الجبار الشريف

المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر

الدار التونسية للنشر

الرحلة الأندلسية

ل : علي بن سالم الورداني

-1887-

جمعها وحققها وقدم لها

عبد الجبار الشريف

دار كوتنيت للنشر

تقديـــــم

1 ـ كلمة لا بدّ منها

في أمسية من أمسيات صيف 1981، وفي مقهى سيدي أبي يحي برادس، كنت والصديق الأديب علي دب نتجاذب أطراف الحديث ـ كعادتنا ـ حول مشاريعنا الأدبية ومطالعاتنا فإذا بالحديث يتطرّق بنا إلى الرحلات العربية قديمها وحديثها. واتفقنا على إنجاز برنامج إذاعي يعرّف بأغرب الرحلات. وهنا أشار عليّ الصديق علي دب بالرجوع إلى جريدة « الحاضرة » لسنة 1888 والاطلاع على رحلة لكاتب تونسي لم يذكر لي وقتها اسمه. وفعلا عدت إلى الجريدة المذكورة بقسم الدوريات بالمكتبة الوطنية أتصفّح أعدادها فوجدت ضالتي. وعكفت منذ ذلك الحين على هذه الرحلة أقرأ سطورها فإذا هي رحلة إلى بلاد الأندلس لكاتب لم أسمع به من قبل اسمه علي بن سالم الورداني. وحزّ في نفسي أن تبقى هذه الرحلة حبيسة لا ترى النور، وحزّ في نفسي أكثر أن الجريدة التي عنيت بنشرها سنة 1888، بدأ يعتريها البلى فطمست كلمات كثيرة من الرحلة أضف إلى ذلك أن طبعتها رديئة جدّا تحتاج إلى تصحيح وعناية وتقويم فهي تغصّ بالأخطاء، وهي على أخطائها نادرة لا تصل إليها الأيدي بسهولة.

وبذلك أصاب الرحلةالأندلسية ظلم كثير فلم ينهض لها محقق يجمع شتاتها ويقوّم أخطاءها وينشرها في جمهور المثقفين المتشوقين إلى تراثنا، رغم مضيّ قرابة القرن على نشرها. وهذا سبب من الأسباب التي دفعتني إلى العناية بها وتحقيقها.

أمّا السبب الثاني فاقتراح لطيف من المرحوم ح. ح. عبد الوهاب ورد في الجزء الثاني من « ورقات » يقول فيه : « وكم بروق لتونسنا العزيزة

المتشوقة إلى بلوغ الكمال بجمع الشتات وتدارك ما فات لو توفَق أحد بنيها الغيورين واعتنى بنشر الرحلة الأندلسية على حدة، مع التعريف بمؤلفها والتعليق عليها بما تستحق وبما يناسب (1) »

لهذا نهضت بالمهمة ، وبذلت اقصى ما امكنني من الجهد لاخراج هذه الرحلة بشكل يليق بها وبمؤلفها، وأحقق في الوقت نفسه الأمل الذي كان يرجو المرحوم ح. ح. عبد الوهاب تحقيقه.

2 ـ منهج التحقيق

إن الرحلة الأندلسية، نسخة فريدة لا أخت لها نشرت تباعا في جريدة الحاضرة من سنة 1888 إلى 1890 في 28 عددا. وقد اعتمدت عليها في التحقيق. ولقد استقصيت ما تيسَر لي من فهارس المخطوطات علّني أجد أثرا للمخطوطة الأصلية فلم أوفَق. ولذا فقد كان اعتمادي على نسخة جريدة الحاضرة وحدها، وهذا بحدَ ذاته مشكلة عويصة بالنسبة للمحقق، إذ يحرمه من إمكانيات المعارضة والمقابلة والاستزادة من التحقيق والاستبانة. وممَا زاد في تعقيد المشكلة أن هذه النسخة الوحيدة مطبوعة طباعة رديئة جدًا. فهي تغص بالأخطاء والتحريف. لذا فقد اقتضت مني جهودا كبيرة لقراءتها حرفا حرفا للتحقق من صحة العبارات من الوجهة اللغويَة.

وحيث أن الرحلة تتضمن عددا لا بأس به من الأبيات الشعرية، فقد استوجب علاوة على ما تقدم التحقق من انضباط الوزن وفقا لبحور الشعر المعروفة.

ولقد استعنت في تحقيق التراجم، وضبط الأعلام بما تيسَر لي من المراجع. وأعددت أيضا فهارس للأعلام والأماكن والكلمات الدخيلة استغرق إعدادها وقتا طويلا واستنفد مني جهدا كبيرا .

ومع ذلك فقد بقيت عدَة مواضع متأبية على الوضوح والاستقامة إذ حالت رداءة الطباعة دون استجلائها على وجه صحيح، وهي مواضع قليلة ونأمل

---

1 ورقات، ج 2، ص 466.

أن تتاح الفرصة لتقويمها على ضوء المخطوطة الاصلية إن أسعفنا الحظ بالعثور عليها. ولا تكاد المواضع القليلة تقلّل من قيمة الرحلة وأهميتها.

وبعدُ :

فإنني ما ادخرت وسعا في إخراج النص والأمانة في نقله، وبذلت أقصى ما أمكنني من الجهد، فأرجو أن أكون وفّقت إلى بعض ما اجتهدت، وآمل أن يكون عذري في تقصيري أنّني بذلت جهدي والله من وراء المقصد.

عبد الجبار الشريف
رادس 1982 ـ 1983

شكر وتقدير

وجدت في تحقيق هذه الرحلة كثيرا من العون والتشجيع والترحيب. وإذا كنت أريد أن أخصّ أحدا بشكري الخالص، وتقديري واجلالي، فإنّما أبدأه بالصديق الأخ أحمد جليّد القائم على قسم الدوريات بالمكتبة الوطنية على مساعداته القيّمة وتسهيلاته الجمّة، ممّا لن أنساه له ما حييت. كذلك أشكر أستاذنا الدكتور علي الشابي على المراجع التي خصّني بها حتى أمكنني التغلب على كثير من الصعوبات والعقبات.

عبد الجبار الشريف

البحث عن المخطوطات... والرحلة العلمية

انتشر أدب الرحلة بين العرب انتشارا كبيرا منذ العصور الاسلامية الأولى، وقد تعدّدت الغايات والأغراض من الرحلات فبعضها استطلاعي ذو طابع عسكري، وبعضها تجاري، وبعضها ديني، وبعضها علمي.

وبداية من سنة 1886 بدأ العرب سواء منهم المشارقة أو المغاربة يتردّدون على إسبانيا وقد تركز الغرض من رحلتهم حول طلب العلم. وتردّد العرب على إسبانيا إنما يمثل ربطا جديدا للصلات التي انقطعت طوال قرون عديدة بين البلاد العربية والغرب عموما. وانعدام هذه العلاقات يمكن إرجاعه إلى صعوبات عدة أهمّها : صعوبة المواصلات إلا أن السبب الرئيسي يكمن في انطواء المسلمين على أنفسهم خاصة في القرون الوسطى. ولقد بدأ العرب المسلمون يخرجون من هذه العزلة الذاتية إثر حملة نابليون بونابارت على مصر. وقد تجلت بوادر الوعي بمكانة الغرب مع محمد علي، الذي أدرك بعمق الأبعاد الحضارية لحملة بونابارت. وذلك ما جعله يقتنع بضرورة الإقتباس من الغرب مع المحافظة على الروح الإسلامية. كما جعله يقتنع بأن لا سبيل لتحقيق هذه المعادلة إلا عن طريق المعرفة. وأجدر بطالب العلم أن يأخذ العلم من منابعه، أي من بلاد الغرب نفسها. وهذا ما يفسّر تكاثر البعثات العلمية العربية (1) خاصة ابتداء من 1828، وكانت روما وباريس ولندرة وبرلين مقصد هذه البعثات ، فيما ظلت اسبانيا بعيدة عن الاهتمام . ولكن تاريخ هذا البلد الذي عرف الاسلام لمدة ثمانية قرون سوف يحرّك مشاعر

1 للاطلاع على تفاصيل البعثات في عهد محمد علي راجع: الرافعي، عصر محمد علي، 346 ـ 348 و365ـ380.

الحنين عند العرب وسوف يجلب وفودهم. وبالإضافة إلى هذا يرى « هنري بيراس » أن هناك عاملين أفرزا هذه الرغبة في الالتفات إلى إسبانيا وهما : إنشاء منشورات الجوائب في القسطنطينية، ومساهمة المشارقة في المؤتمرات العالمية للمستشرقين في أوروبا. (2)

وقد أسس أحمد فارس الشدياق في القسطنطينية مجلته الجوائب (3) في عهد السلطان عبد الحميد، وقد كانت ناطقة بالعربية وساهمت في نشر التراث الفكري والأدبي العربي وذلك بمباركة من السلطان عبد الحميد ؛ إلا أن الشدياق الذي عاش طويلا في أوروبا (4) وتشبع بالمناهج العلمية لم يكن ليكتفي بما توفر له من وثائق لا تخلو من نقائص تضعف من قيمتها العلمية. ولذلك حرص على الاطلاع على ما تحتويه المكتبات الأوروبية من مخطوطات عربية ليس له منها بدّ لمواصلة رسالة « الجوائب » كما يتصوّرها. ومن أهمّ المكتبات الأوروبية التي تحتوي على مخطوطات عربية ثمينة مكتبات إسبانيا وخاصة مكتبة الاسكريال بمدريد. ولعله أعلم السلطان عبد الحميد برغبته وتجسمت هذه الرغبة ابتداء من سنة 1885 حين أخذ هذا السلطان يرسل البعثات إلى إسبانيا بحثا عن المخطوطات. وأوّل من فتح الطريق هما الشنقيطي (5) وعلي الورداني.

---

2 Henri Pérès : l'Espagne vue par les voyageurs Musulmans de 1610 A 1930. P 53

3 حرّر الشدياق في « الوقائع المصريّة » من 1825 إلى 1834 وبعد ذلك أسّس « الجوائب » في الآستانة سنة 1860 . راجع طرازي ، تاريخ الصحافة العربيّة 1 ـ 61

4 أحمد فارس الشدياق : درس مبادىء العلوم اللسانية في مدرسة عين ورقة المارونية ، ثم اعتنق البروتستانية، وتوجه عام 1825 إلى مصر حيث استوفي ما أتقنه من أصول العربية. بعد ذلك دعته الارسالية الامريكية إلى مالطة حتى عام 1834 فعلم اللغة العربية وتولى إدارة المطبعة الامريكية وأقام في مالطة حتى عام 1848، وفي مشاهداته وانطباعاته هناك كتب سنة 1840 « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » ثم دعي إلى انكلترا لتعريب الكتاب المقدس. فسافر إليها في عام 1848 مارّا في طريقه بفرنسا. وأقام الشدياق في انكلترا ثم في فرنسا حتى استدعاه باي تونس 1855. وفي وصف رحلاته الاوروبية وضع سنة 1854 « كشف المخبا في فنون أوروبا » وفصولا عدة من سيرته الذاتية « الساق على الساق فيما هو الفارياق » راجع في سيرته : السندوبي، أعيان البيان، 111ـ170.

5 محمد محمود بن أحمد بن محمد التركزي الشنقيطي توفي سنة 1904. اتصل بالسلطان عبد الحميد فكلفه بمراجعة الكتب العربية الموجودة في إسبانيا. من تصانيفه : « الحماسة السنية الكاملة المزية، في الرحلة العلمية الشنقيطية ». و« تصحيح كتاب الاغاني » و« حاشية على شرح لامية العرب » انظر : سركيس، معجم المطبوعات، 1149ـ1150. الشنقيطي، الوسيط 374ـ386. ح. ح. عبد الوهاب، مقدمة أدب المعلمين، 14. 55ـ61 H. Pérès : l'Espagne... PP.

علـــي الوردانـــي

علي بن سالم الورداني، نسبة إلى الوردانين من قرى الساحل في دائرة سوسة. بها ولد في سنة 1861، ثمّ قدم في صباه إلى تونس العاصمة ودخل المدرسة الصادقية، وزاول تعلّمه بها وبرع في العربية وأتقن اللسانين التركي والفرنسي، وتميّز بين أقرانه فلفت اهتمام الوزير الكبير خير الدين باشا واتخذه كاتبا فى حاشيته، ولمّا استقال هذا الوزير من منصبه بتونس وسافر إلى اسطنبول - عاصمة الخلافة العثمانية - استصحب معه الورداني سنة 1887م، وقد استفاد علي كثيرا من إقامته بالاستانة حيث زاد في إتقانه للسان التركي ، وقوي زاده في العلوم علاوة على تعرفه على كثير من أعيان الدّولة.

وعندما قرر السلطان عبد الحميد باقتراح من منيف باشا أن يرسل بعثة علمية إلى إسبانيا وفرنسا وأنكلترا للبحث عن المخطوطات العربية المحفوظة بخزائنها والتعريف بأهميتها، عرض الصدر الأعظم السابق خير الدين باشا على السلطان هذا الشاب التونسي لمرافقة البعثة باعتباره مترجما.

وبارحت البعثة إسطنبول يوم الأربعاء 19 ذي الحجة 1296 (8 سبتمبر 1887) على متن باخرة قاصدة مرسيليا، ومنها ركبت الرتل إلى مدينة بوردو، ثمّ دخلت إلى إسبانيا وحلت بمدريد قاعدة البلاد، ومنها توجهت إلى الإسكوريال حيث توجد مجموعة المخطوطات العربية، فاطلعت اللّجنة عليها وقيّدت ما اختارت منها، ثمّ انتقلت إلى طليطلة فإشبيلية فغرناطة، فقرطبة، فبلنسية، فبرشلونة، ومنها عادت إلى باريس بعد أن قضت ثلاثة أشهر كاملة في إسبانيا.

ولمّا عادت البعثة إلى الأستانة أقام الورداني مدّة هناك قدّم فى أثنائها تقريرا في أعمال البعثة ونتيجة أبحاثها ، ثمّ حنّ إلى مسقط رأسه وقد ترك به والدته المسنّة، فرجع إلى تونس وانخرط في سلك المترجمين بالوزارة الكبرى، ثمّ ترقّى إلى رتبة منشىء أوّل ومن ناحية أخرى استمرّ على الاشتغال بالأدب ونشر المقالات والقصائد من نظمه في الجرائد المحلية، لاسيما في جريدة « الحاضرة » لما كان له مع صاحبها ومؤسسها المرحوم علي بوشوشة من المودّة المتينة والصحبة منذ الصبا وعهد الدراسة، كما كانت له علاقة ودية بغالب الشخصيات التونسية المعاصرة. وعاش علي الورداني

أعزب إلى اخر حياته. وكان خفيف الروح، له مداعبات ومزح لطيف حبّبه إلى عارفيه زيادة على ما كان عليه من كرم الأخلاق وحسن المعاشرة مع شيء من الغفلة بأمور الدنيا وشؤونها المادية ، ممّا زاد في محبّة إخوانه له وعطفهم عليه. وكان ينظم الشعر بالمناسبات، وحرّر المقالات في شتى المواضيع.
وكانت وفاة علي الورداني في خلال سنة 1333هـ ـ 1905م (1) ومن اثاره ـ علاوة على أشعاره ومقالاته المتنوعة والموزعة هنا وهناك ـ رحلته إلى إسبانيا التي عنونها بـ « الرحلة الأندلسية » وقد نشرت تباعا في جريدة « الحاضرة » من سنة 1305هـ إلى 1307هـ (1888ـ1889ـ1890م) في 28 عددا (3، 4، 5، 6، 8، 9، 11، 26، 27، 28، 30، 33، 34، 37، 40، 41، 42، 43، 53، 61، 62، 76، 90، 91، 94، 98، 100، 103).

---

1 ح. ح. عبد الوهاب : ورقات. ج 2 ص 461 ـ 465 وكذلك :
H. Pérès : l'Espagne vue par les voyageurs Musulmans de 1610 A 1930 PP 62-63

سير الرحلة وأهميتها...

انطلقت البعثة من إسطانبول يوم الاربعاء 19 ذي الحجة 1304 8 سبتمبر 1887 في الساعة الحادية عشر صباحا على متن باخرة تسمى (لموز) تابعة لشركة (بكيت) الفرنسية. ووصلت إلى مارسيليا في فجر يوم الخميس 28 ذي الحجة سنة 1304 17 سبتمبر 1887 واتجهت البعثة إلى بوردو بالقطار يوم الجمعة 29 ذي الحجة 18 سبتمبر ووصلت إلى الحدود الإسبانية يوم السبت 1 محرم سنة 1305 19 سبتمبر 1887 على الساعة الواحدة بعد الظهر.

وفي شهرين زارت البعثة المدن التالية : مدريد والاسكوريال وطليطلة وإشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية وبرشلونة ثمّ باريس. وكان الهدف من هذه الرحلة ـ كما قدمنا ـ دراسة المخطوطات العربية الهامّة الموجودة في المكتبات الحكومية أو الخاصة ورسم قائمة فيها لغرض نشرها فيما بعد.

ولقد كان الورداني مثل أسلافه يسعى إلى تدقيق مصدر هذه المخطوطات ولكننا يجب أن نعترف بأنّه لم يتوصل دائما إلى التمييز بين المعلومات الصحيحة والخاطئة. ولئن أكد بأن محتوى الاسكوريال ليس مصدره من المكتبات التي تركها المسلمون لأن النصارى، عندما يستحوذون على مدينة، كانوا يحرقون كلّ الكتب العربية باستثناء بعضها (1)، فإنّه يخطىء ـ حسب قول هنري بيراس ـ عندما يقول : « إن هذه الكتب هي من كتب زيدان أمير المغرب كان اشتراها من المشرق وبينما مأموروه قد قدموا إذ فاجأتهم سفن إسبانيا الحربية قريبا من بوغاز (سبتة) (جبل طارق) فغلبتهم وغصبت هذه الكتب » (2). وهذا الخطأ متأت بدون شك من أن الورداني ـ وقد تلقى هذه المعلومات مشافهة من إسبانيين ـ لم يفهم جيّدا ما قيل له نظرا لأنّه لا يجيد اللّغة الإسبانية. وهناك عامل يؤكد لنا ذلك بوضوح : ففي قرطبة فوجىء الرحالة عندما لم يجد أي مخطوط : « وبحثنا في المكتبات جميعها فلم نجد أثرا للكتب العربية أصلا وهو أمر عجيب، فإن مجامع الكتب التي كانت في قرطبة هي من الكثرة بمكان عظيم في الزمن السالف. حتى أن السفير المشار إليه عرفنا أن فهرست الكتب العربية الإسلامية التي كانت باقية عند هجوم

1 الرحله الاندلسيه.
2 المصدر السابق.

الإسبانيوليين كانت خمسة وأربعين مجلدا على ما حققه من تواريخ الإسبانيوليين وغيرهم (3). ويستَخلص الورداني « أن الإسبانيوليين لمَا دخلوا قرطبة لم يستَعملوا الحكمة في استبقاء آثار العلوم ولم يعرفوا مقاديرها حتَى ينتفعوا بها فأتلفوها عتوًا واستكبارا » (4).

إن الورداني لم يفهم أن المعلومات التي قدّمت له تتعلق لا بمكان يوجد في قرطبة أثناء الغزو الإسباني، ولكن بالمكتَبة الشهيرة (5) للخليفة الأموي الحكم الثاني (ت 366 = 976) التي أتلفت لا عن طريق النصارى بل عن طريق المسلمين البرابرة أو السلاجقة في مستهل القرن الحادي عشر في فترة الفتنة (6).

واهتم الورداني اهتماما كبيرا بالتفسيرات التي قدَمت له عن ظروف إتلاف المخطوطات العربية : فمن الناحية الزمنية يعتبر القرن التاسع عشر من أشأم القرون على الأدب العربي إذ أتلفت فيه آخر كنوز هذا الأدب، ومن الناحية السياسية فقد صادر نابليون الأوّل ما تبقى من هذه الآثار الأدبية ونقلها إلى باريس « وما بقي منها في المكتبات تناثرته أيدي الغوغاء في أثناء الثورات المتوالية التي حصلت في البلدان » (7).

وفي الأكاديميّة الملكية للتاريخ بمدريد. قدّمت للورداني مخطوطات عربيّة اكتشفت في طلِيطلة وكانت مناسبة حسنة لاثبات الاستمرار المدهشِ للغة والخط العربيين في مدن خضعت للسيطرة النصرانية، ولكنه اكتفى بأن لاحظ هنا « لم نجد شيئا من الكتب العربية إلا بعض أوراق اطلعت منها على حجة بيع بعد زمن الاستيلاء يقول فيها : اشترى فلان من فلان على مقتضى شريعة عيسى عليه السلام فدلّنا ذلك على أن إسبانيا لما دخلت بلاد العرب ألزمتِ الأهالي بترك الدِّين قسرا » (8) .

3 الرحلة الأندلسية.

4 المصدر السابق.

5 حول مكتبة الحكم أنظر : المقري - نفح الطيب ج ا، 250، اا، 49-50 وكذلك :

— Lévi Provençal : L'espagne. Musul. au X_e Siècle P 233-234

— Dozy, Hist. Musul. l'Espagne. II, 183-184

— H. Pérès. l'Espagne vue par les voyageurs Musulmans. P 65

7 الرحلة الأندلسية.

8 انظر الرحلة.

اهتم الورداني بالعملات الإسلامية المحفوظة في الاسكوريال ؛ لكنّه يعترف بأنه كان غير قادر على قراءة الكتابات التي كان يجدها على القطع النقدية الأندلسية. في حين أن درهما من سلسلة أخرى يبوح إليه بسره قد يعود تاريخه إلى عهد « الهادي ». ويرجع ذلك إلى تسرّع في التعميم بأن كل هذه المجموعة النقدية الشرقية لا بدَ أن تكون من عصر الخليفة العباسي الرابع « موسى الهادي » (9) ذلك أنه الأمير الوحيد الذي حمل هذا اللّقب. وإلى حدَ الآن لا يسعنا إلا أن نعتبر الورداني الثاني بعد الشنقيطي وأكثر منه إطنابا ؛ لكن من الخطإ اعتباره مجرّد محقق للمخطوطات فعلاقته بالرّحلة تبيّن لنا أنّه - هو أيضا - يحسن الاهتمام بمعالم الهندسة الإسلامية. ويحاول أن يستخلص الأبعاد الهائلة لقوس جسر أو لبطحاء أو لمسجد أو صومعة، عندما تثير فيه هذه المعالم الإعجاب، فالجسر في طليطلة عربي، أمّا الباب فمشكوك في أصله. وقد تحوّل فيها أحد المساجد على إثر عودة الأسبان إلى بيعة يهودية ثمَ إلى كنيسة مسيحية ثمّ رمم وأرجع إلى هيئته يزوره كثير من السياح (10).

ويشير - هنري بيراس - إلى أن الورداني قد وقع في خطإ عندما اعتبر قصر بني « ذو النون » (11) قصر ابن هود (12) وهو يوجد حسب اعتقاد الورداني على أرض لنبيل يسيطر على النهر وعلى المدينة، وقد شبت فيه النيران بعد سنة وألحقت به أضرارا فادحة. ثمّ يشير إلى أن الحكومة صرفت مبلغ مليونين من الفرنكات لاصلاح ما فسد . وفي إشبيلية تمثل « الجيرالدا» وهو يسميها ببساطة منارة ، معلما يبلغ ارتفاعه ثلاثين مترا وعرضه أربعة أمتار . كما أعجب بالقصر الذي يوجد بهذه المدينة فيقول متحدثا عنه : « هو

9 انظر تعليق ص 45.

10 إنه يعني بلا شك كنيسة القدّيسة مريم البيضاء .

انظر : H. Pérès : l'Espagne vue par les voyageurs Muslmans. P 66

11 بنو ذو النون : أسرة من البربر من قبيلة الهوّارة انتقلت إلى اسبانيا قديما . حكموا في عهد ملوك الطوائف (القرن 11) مقاطعة تمتد من وادي الحجارة حتى مرسية. كانت عاصمتهم طليطلة. أثاروا الفتن على أمراء قرطبة. زالت الأسرة بموت يحي القادر. انظر : دائرة المعارف الاسلامية ج 9، ص 308-309.

12 انظر ص 47.

نزهة للنّاظرين وعبرة للمتفكرين » (13) . ثمّ استحضر بالمناسبة وببديهة الأديب العربي بعض الأبيات من الشعر.

وفي غرناطة يسحر قصر الحمراء خيال الزائر بموقعه حيث الأشجار والنسيم العليل، ولكنّه يعترف أنّه ليس من الممكن لأيّ كان أن يقدّم وصفا دقيقا لهذا المعلم. إذ يحتاج ذلك إلى مجلّد بأكمله. فقبل الدخول إلى قاعات القصر ذاتها يلاحظ عددا هاما من الزخارف التي - وهي موضوعة في الساحة - تعكس بكل وضوح صورة هذا المعلم العظيم - ولقد ذهل بعدد قوافل السياح الذين يزورون هذا المكان الخلاب وخاصة منهم الأنكليز : «فتهافتهم على زيارة الحمراء بهذه الدرجة يعلن لمن تبصّر مقدار أهميتها في العالم المدني ويبين مقدارها لدى المجتمع الصناعي الغربي » (14). والذي يثبت ذلك عدد المؤلفات المكتوبة باللّغات الأوروبية عن « الحمراء ». وقد نشر أحد العلماء كتابا ضخما عن هذا البلد وعن غيره سمّاه « حضارة العرب » طبع بباريس سنة 1884، تناول فيه موضوع الحمراء سواء أكان ذلك عن طريق النصوص أو عن طريق الصور. (15)

وقدّم الورداني على إثر هذه المقدمة وصفا موجزا للقصر نفهم من خلاله أنه قام بزيارته مع دليل فصيح يعرف هذا المعلم معرفة جيّدة. وتفتقر المصطلحات الفنية التي استعملها « سيموني » نفسه، وهو أستاذ اللّغة العربية في جامعة غرناطة إلى شيء من الدقّة. « فبطحاء » هي عبارة عن ساحة منبسطة ومكشوفة، و« حوض » يعني أحيانا البركة ذات النافورة، وقاعة السفراء تسمى قصر السفراء، وكل من الرخام والحجارة البيضاء الصقيلة يدعى مرمر . لكن إذا كان الفنّي يقع أغلب الاحيان في الخطإ فإن الأديب المتذوق للفن لا تفوته الفرصة أن يترجم صورة الجمال الذي يحس به : « وكل الحيطان وباطن القبة مزين بالنقوش البارزة ذات الأشكال العجيبة الدّالة على ما كان للدولة الإسلامية من الاقتدار الصناعي العظيم

13 الرحلة الاندلسية.
14 المصدر السابق.
15 هو العالم الفرنسي غوستان لوبون (1841.1931) انظر الموسوعة العربية الميسرة. ط. 1. ص 1569.

بحيث إنك إذا تأملت في هذه النقوش جزمت حالا بأن العلم والصناعة بلغتا الدرجة الأولى في بلاد الأندلس. وأن الثروة والعظمة كانتا عندهم في سعة من الزّمان ولكن الدهر أثر على الطلاء الذهبي فأباد جلّه وأبقى أقلّه » (16).

وعندما غادر الورداني قصر الحمراء أجرى حديثا مع دليله - سيموني فيما يبدو - وحرص على أن يقدّم لنا أهمّ ما جاء فيه : « وعندما خرجنا قال لي مزورنا وهو إسبانيولي : تعلم أنّنا استعملنا ثمانية قرون حتى زحزحنا العرب عن ملكها واستولينا على هذه القصور ؟ فقلت له : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » ولكن هل ترى أنكم أهدرتم دماء مئات ألوف من جنودكم فيها ؟ فقال : بل ملايين. فقلت له : إن طارقا عبد موسى بن نصير استولى على إسبانيا في ثلاث سنين، ولم يكن معه إلا واحد وعشرون ألف مقاتل. فاعترف بهذا المقدار » (17).

ولم يشر الورداني فيما أشار إليه من المعالم الموجودة في قرطبة إلا إلى الجسر والمسجد « إذا تجاوزت القنطرة إلى الجانب الآخر تجد بطحاء خالية تشهد أنّها كانت من العمار بمكان ولكن اضمحلت بالمرة حتّى أني لم أجد لقصر المرحوم الخليفة عبد الرحمان الداخل المسمّى بقصر الزهراء من أثر يذكر » (18).

أمّا في وصفه المقتضب للمسجد فليس هناك شيء يمكن أن يشدّ إليه انتباهنا. والشيء الذي يستحوذ على إعجابه هو دائما زخارف المحراب : « والمحراب والمنبر من المرمر الصافي منقوشان بالنقوش البديعة المعربة عن سرّ الإتقان الصناعي حق الإعراب » (19).

ومن اللّافت للانتباه أن الورداني لم يكتف بتسجيل كل ما كان يصل إليه من خلال المخطوطات العربية والمعالم الإسبانية الإسلامية، بل قدّم بعض الملاحظات حول المجتمع الإسباني.

ولعله كان من الأوائل الذين وصفوا لنا سباقات الثيران إلى حد يجعلنا

16 الرحلة الاندلسية.
17 المصدر نفسه.
18 انظر الرحلة الأندلسية.
19 المصدر السابق.

تخرج بنتائج عن مدى وقعها من الناحية السيكولوجية والإجتماعية « إنّ هذه الألعاب قد أثرت في أخلاق الإسبانيوليين شدّة وحماسة، لتعودهم دائما على مشاهدة الدّماء وسفكها واستهانة الخطوب وارتكابها... ولهذا لاتكاد إسبانيا تخلو من الشغب والقلاقل ».

وبإمكاننا أن ندحض هذا التفسير : هل أن سباقات الثيران هي التي شكلت طبيعة الإسبانيين على هذا النحو أم أن هذه الطبيعة سابقة لظهور هذه الألعاب الدموية ؟ إلا أن الورداني في الحقيقة يرى أن هناك تلازما بين الاثنين.

وقد استطاع كذلك أن يبرز الانعكاسات الإقتصادية والإجتماعية لسباقات الثيران بشكل دقيق «إن هذه الالعاب تشغل الوفا مؤلفة عن الاعمال ثلاث مرات في كل أسبوع. ولا يخفى ما يؤثره هذا التعطيل في الأحوال المدنية بأقسامها مادة ومعنى إذ يتعطل الصانع عن صناعته والتاجر عن تجارته والمحترف عن حرفته. أمّا تأثيره في الأذهان فهو مهمّ جدّا إذ يمنعها في الأعمال الراهنة من الاسترسال في تتبع العلوم والمعارف. ولعلّ هذا هو من الأسباب التي حطت درجة الإسبانيوليين في النظر المدني والمجتمعات العلمية من أوروبا وهو الذي منعها من استكمال دواعي الثروة العموميّة ». (20).

واستند الورداني بعد ذلك فيما يتعلق بنفس هذه السباقات إلى إحصائية لأيّام العمل وأيّام العطل على امتداد ستة أشهر بين الربيع والصيف. وتوصل إلى النتيجة التالية : إن الإسبانيين لا يعملون إلا ستين يوما خلال ستة أشهر، ويستخلص الرحالة أنه بالنظر إلى كلّ هذه الخسائر فإن إسبانيا لا تجني من ذلك إلّا شجاعة وجرأة، وهذا قد لا يكفي لصنع عظمة بلد مّا.

وتضمنت رحلة الورداني في نهايتها عددا من الملاحظات حول لغة الإسبانيين وأخلاقهم التي نعتقد أنه من المفيد تحليلها بسرعة ذلك أن الورداني يلاحظ أن الألفاظ العربية مستعملة لدى الإسبانيين بمعانيها العربية مثل : فلان ، منديل ، قنطرة ، قط ، قصر ، سكر، قاضي، إن شاء الله، إلخ... وأداة التعريف للمذكر المفرد « ألـ » بقيت بدورها حية.

20 الرحلة الاندلسية.

وقد أعلم « سيموني » الرحالة التونسي أنه يوجد في اللّغة الإسبانية أكثر من ثلاثة آلاف لفظة من هذه الألفاظ والتي وضع فيها معجم خاص، وأشار الورداني إلى أن معظم هذه الالفاظ قد تعرّض إلى التحريف فقط أصبحت (قت) وقصر (كشر) وسكر (شكر) وإن شاء الله (أوخا الله) إلخ...

ووصل إلى حدّ البحث ان كانت هناك عائلات إسبانية ما تزال تحمل أسماء عربية وذهب إلى أبعد من ذلك عندما تساءل إن كانت تنحدر من سلالات عربية ؟ ومن سوء الحظ فإن والي غرناطة نفسه يجيبه بكل ثقة أنه ليست هناك عائلة إسبانية واحدة تحمل حاليا لقبا عربيا.

إن الملاحظات حول الأخلاق والعادات تبدو طورا منصفة وباعثة على الإطلاع لما تتسّم به من صراحة، وطورا مثبطة لما تتصف به من تضارب.

وفيما يتعلق باللّباس، يذكر الورداني أن نساء الريف يلبسن على طريقة القرويات بالبلاد التونسية وأن رجال منطقة (بلنسية) الذين يشتغلون بالبستنة لا يلبسون سراويل طويلة ولكن سراويل تنتهي عند الركبتين مثل التي يلبسها الرجال بالبلاد التونسية، وذلك حسب رأيه برهان مقنع على تغلغل التقاليد العربية في إسبانيا (21).

ولا تأخذنا الدهشة إن وجدنا بعض الانطباعات حول النساء فهنّ « من أجمل نساء أوروبا لامتزاج الدم الإسبانيولي بالدم العربي وتناسب الألوان والأشكال في أغلبهن، وهنّ في الحقيقة أجمل من نساء فرنسا إلا أن هاتيك ربات خلاعة وآداب أخرى. وتتميز الإسبانيوليات بقلّة التبرج وعدم مزاحمة الرجال والاختلاط معهم لقلة خروجهن وعدم تعودهن على التجول الدائم والتهافت الكثير » (22). فالورداني يريد أن يجعل منهن نصف محتجبات ربما لما عرفه لدى النساء المسلمات اللائي عشن في هذا البلد.

لقد خرج من الأعراف السياسية والإدارية بملاحظات أكثر دقّة : « ومن غرائب أحوالهم أن كل وزارة جديدة تعزل جميع المستخدمين من التابعين لسلفها، وتستخدم غيرها من أحزابها وكل ناظر إدارة متي توظف أخذ من

21 الرحلة الاندلسية.
22 المصدر السابق.

الرحلــة الأندلسيــة

حزبه مستخدمين وعزل جميع المامورين السالفين، وهذه الأسباب الوحيدة في عدم أمن المأمورين على وظائفهم عند التقلب فتمتد أيديهم إلى اغتنام الفوائد الخاصة التي يرجون بها تأمين استقبالهم وداعية إلى حرصهم على الحركات والأعمال المتضاربة عند عزمهم لنوال الوظائف. ولا يخفى تأثير ذلك في أحوال الهيئة الإجتماعية وما يستلزمه من تشوش الأذهان وتأخر الحوائج واضمحلال الحقوق » (23).

ويورد الورداني رأيا حول التعليم بإسبانيا : « ومن العادات المضرة أيضا عدم إجراء التعليم الاجباري في إسبانيا كما هو في فرنسا وغيرها فإن ذلك قد أوجب لهم التأخر عن جميع الإفرنج في العلوم والفنون والصنائع، وإن كانت حضريتهم لا بأس بها إلا أنّها تحتاج لنيل درجة فرنسا أو غيرها من الدول إلى مائة عام » (24).

والكاهن بما يملك من سلطة يبدو في نظره العقبة الكأداء في طريق نشر التعليم، فنظره إلى الأشياء لا يخلو من عيب، هو أنّه يبحث عن تحويل المسلمين إلى مسيحيين مثل الورداني نفسه الذي جاء إسبانيا في مهمات علمية.

وأخيرا فإن أهمية هذه الرحلة تتمثل في كونها صورة تجسم مرحلة وعي مزدوج : الوعي بتخلف العالم العربي الإسلامي، والوعي بضرورة الاقتباس من الحضارة الغربية، وهي من هذه الوجهة تأخذ بعدا إصلاحيا. كما أن اهتمام الرحالة بإسبانيا يندرج حسب رأينا في التيار السلفي الذي سعى إلى عملية بعث لمجد الأجداد والانطلاق منه لإرساء دعائم النهضة الجديدة.

عبد الجبّار الشريف

---

23 الرحلة الاندلسية.
24 المصدر السابق.

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى اله وصحبه أجمعين

وبعد فيقول الفقير إلى الله سبحانه وتعالى علي بن سالم الورداني التونسي : إنَه لما كان الاهتمام بشأن تقدم العلوم والمعارف من أجلَ المقاصد المتجهة نحو تقدّمها يوما فيوما أنظار جلالة مولانا السلطان المعظم عبد الحميد خان (1) أيد الله سلطنته بعثت نظارة المعارف العمومية السلطانية مأمورية إلى إسبانيا وباريس ولندرة للاطلاع على بعض ما بها من الآثار العربية والكتب النفيسة الإسلامية وعينتني ترجمانا للمأمورية بأمر حضرة الوزير الخطير والفيلسوف الشهير عالم الوزراء ووزير العلماء صاحب الدولة منيف باشا وزير المعارف العمومية، فأحببت أن أكتب شيئا من رحلتي هاته وما استكشفته من المشاهدات والآثار بتلك الدّيار قياما بواجب الخدمة، وتقديما لفرائض الذمّة، والله سبحانه وتعالى المسؤول في جعلها مظهرا للقبول إنه هو الولي الحكيم.

مبـــدأ الرحلـــة

تلقينا الأوامر العلية اللّازمة والتعليمات المقتضية من نظارة المعارف الجليلة، وأخذنا في التداركات السفرية، فلمّا كان يوم الأربعاء المبارك الموافق تاسع عشر ذي الحجة سنة 1304 بارحنا دار الخلافة العظمى على الصفة الآتية : وهي أننا قد مررنا من باب الكمرك (2) الكائن في الجهة المعروفة (بسركه جي اسكله سي) وبعد أن تحرّى موظفوه أمتعتنا حسب

---

1) السلطان عبد الحميد (1876-1909) حكم البلاد حكما قاسيا ، كثرت فيه العيون ، واختلت موازين الامور . كان عهده طافحا بالحروب : فحارب صربيا 1876 وروسيا 1877 - 1878 . وانتهى القتال بعقد معاهدة سان ستيفانوا التي عدّلها مؤتمر برلين 1878 . ثار عليه 1908 الضباط الشبان المنتمون الى حزب تركيا الفتاة وأكرهوه على منح دستور للبلاد 1908 ، ثم خلعوه 1909 حين لمسوا نواياه السيئة . انظر : الموسوعة العربية الميسرة . ط 1 - 1180 - القاهرة 1965 .

2) الكمرك : (تركية) الجمرك .

القاعدة المعتادة نزلنا في القايق (3) وذهبنا إلى الفابور المسمي (لموز) (4) وهو اسم لنهر من أنهر فرنسا أحد فابورات شركة (بكيت) (5) وهي شركة فرنساوية مركزها العمومي في مرسيليا. وهي حديثة عهد التشكل وعدد بواخرها اثنتا عشرة باخرة وأعمالها منحصرة في ممالك الدولة العلية وجنوب الروسية وجمهورية أمريكا وحكومة المغرب الأقصى ومرجعها فرنسا. وكانت أوراق السفر التي أخذناها من الاستانة العلية إلى مرسيليا ذهابا وإيابا وقيمتها 275 فرنكا ونهاية موعد الورقة أربعة أشهر. فإذا مضت المدة المذكورة احتاج المسافر إلى أخذ ورقة أخرى بأجرة ثانية. فركبنا الفابور (6) المذكور ورأينا فيه من الانتظام ما وفّر لنا كمال الراحة في هذه السفرة. وكان الفابور موسوقا بنحو مائتي ألف دجاجة. فسألت عن موردها ومصدرها، فتبين لي أنها مشتراة من الممالك المحروسة العثمانية بالأثمان الزهيدة التي لا تزيد عن خمسة قروش عن كلّ دجاجة بحساب المتوسط. وتحمل إلى مرسيليا فتباع فيها الدجاجة بثلاثة فرنكات على الأقل. وهذا النوع تحقق لي بعد أن وصلت إلى مرسيليا أنه أرخص فيها منه في باريز.

وعندما ركبنا الفابور كان الهواء ساكنا لطيفاً ومرآة الجو صقيلة جدًا ومياه الخليج هادئة الروع ، والوقت وقت صيف ، والشمس مائلة إلى حيث الغروب. فانطلق الفابور في الساعة الحادية عشرة فسار بنا شرقا والشمس قد ذهّبت بنير أصيلها قنن الجبال وعصفرت مناظر المباني الشاهقة . وما زلنا كذلك بين الشاطئين حتى استترت عنّا غرّة الشمس وأشرق جبين القمر فانعكست أشعته على بلور المياه بين الجبلين ، فشكّلت للعيون أبهى منظر وأبهج مخبر يقيم للقلب أعظم البراهين على تفرد هذا الموقف في الكرة الأرضية. ولم نزل على ذلك حتى أشرقت الشمس ونثرت دنانير أشعتها على البر والبحر كما قال الشاعر :

---

3) القايق : من المصدر التركي (قايمق) بمعنى الانزلاق . والقايق هو القارب الصغير يجري في الماء بالمجاديف أو الشراع . انظر : تاصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل . تاليف : د. أحمد سعيد سليمان ، ص 164 .

4) La Meuse .

5) Paquet .

6) الفابور : Vapour : السفينة البخارية .

الطويـــل

كأن ضيـــــاء الشمس في كل غدوة
علــى ورق الأشجـــار أول ساطـــع
دنانيـــــر في كف الأشلّ يردّهـــا
لقـبض فتهـــوي من خلال الأصابـــع

وإذا بنا قد وصلنا بوغاز (7) الدردنيل والقلعة السلطانية، فلمحت ثمة من الحصون والقلاع الحصينة ما يسرّ الحبيب ويسوء العدو، ثمّ رأيت حصنا حصينا وسدًا متينا ، واستحكامات محكمة شاهقة ، وقلاع عاصمة مانعة ، وملكا كبيرا ، وقد أخبرني « قبودان » (8) الفابور أن هذا الموقع معدود أوّل موقع في الدنيا من جهتي القوة والتحصين حيث إن قوتيه الوضعية والطبيعية من أعظم القوى ثم قال وإن كان جبل طارق يشاركه بعض مشاركة في ذلك إلا أنّ الدردنيل يزيد عنه بأمور أعظمها أنه المفتاح الوحيد بين أوروبا وآسيا، ومنها أن أي دولة كانت في العالم لا تكاد تعبر إلّا بعد خسارة ثلاثين مدرعة حربية حسبما تقتضيه القواعد البحرية، وذلك لما يشتمل عليه من القوة الوضعية من المدافع العظيمة والتوربيد (9)، والقوة الطبيعية وهي موقع البوغاز بين الجبلين العظيمين. ومتى تأمل الإنسان يحكم بالبداهة على أن قوة واحدة لا تعارض أربع قوات منها ثلاث وضعية صناعية والرابعة القوى الطبيعية وهي شكله الموقعي. ثم رسا الفابور في الساعة الرابعة من يوم الخميس 20 ذي الحجة.

والقلعة السلطانية تشتمل على مراكز حصينة، وهي مدينة لطيفة ذات مبان

---

7) البوغاز : (تركية) من المصدر التركي بوغمق : أن يخنق . ويطلق في التركية على الحلقوم وعلى الجزء الضيق من كل شيء فيقال مثلا : بوغاز الزجاجة : أي عنقها . وتطلق على الممرّ الضيق بين جبلين أو بين أرضين ، فيقال : بوغاز جبل طارق وبوغاز استانبول : المضيق .
انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل . ص 41 . تأليف : الدكتور أحمد السعيد سليمان .

8) قبودان : Capitaine : ربّان السفينة .

9) التوربيد : Torpille : النسافة وهي مركب حربي سريع يستخدم لنسف معاقل العدو ومراكبه .

وآثار نافعة ومآثر جليلة، منها القشلاق (10) الموسوم بالحميدية فإنه قشلاق هائل متين مشرف على البحر، وفيه كثير من الجند العثماني وفيه يكون التعليم العسكري.

ومن أعمال هذه المدينة الأواني الفخار الناضرة التي تضارع الصيني في جودتها ورونقها. ولم أتمكن من التجول فيها لعدم معرفة وقت السفر. ثم إنّ الفابور ألقى ما حمله إليها واحتمل ما احتمل عنها من الركاب والبضائع وأخذ الرخصة من الحكومة السنية كما هي العهود المقرّرة بين الدولة العلية والدول المتوادة وسافر منها في السّاعة العاشرة من ذلك اليوم وفي السّاعة الرابعة من يوم الجمعة 21 ذي الحجة وصلنا إلى أزمير.

أزمير

عندما أقبلنا على مدينة أزمير استقبلنا مرساها البهيج بين جبلين عظيمين قد أحدقا بالبحر وهي كائنة على شرقي البحر ومرساها منتظمة جدًا بحيث ترسو الفابورات على ذات الرصيف أو قريب منه. وإذا نظرت إلى المرسى وجدتها مشحونة بالفابورات المختلفة. الرايات مزدحمة بين راحل وحال وناقلة إليها وعنها، ركابا وبضائع بحيثُ يدل ذلك التزاحم على كثرة علائقها التجارية وكثرة تردد التجار والمسافرين. فإذا نزلت الاسكلة (11) رأيت شاطئا ممتدا من الشمال إلى الجنوب مشرفا على البحر من جهة، محدودا بالمباني الفائقة والدكاكين والقهاوي والأوتيلات (12) العامرة من جهة أخرى، وبينهما أي بين المباني والبحر تجري عربات السكة الحديدية والتراموايِ (13) والزحام محتبك دائما وهذه المرسى من آثار حضرة السلطان

---

10) القشلة : في التركية قشله وقشلا من كلمة قيش بمعنى الشتاء والقشلة هي المعسكر الشتوي : د. أحمد السعيد سليمان . تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل . ص 169 .

11) الاسكلة : من الايطالية : سكالا Scala دخلت التركية بصيغة إسكلة وتطلق في التركية على :
(أ) الالواح الخشبية التي تثبت : أفقيا على المباني ليقف عليها البناءون وهي السقالة العربية الدارجة .
(ب) رصيف الميناء البحري ، ثم توسع فيها ، فأطلقت على الميناء .
(ج) أساكل ، واسكلات . انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل . ص 16 .

12) أوتيلات : كلمة دخيلة : Hotel : نزل .

13) الترامواي : [illegible] .

المعظم عبد الحميد أيده الله تعالى ، فإنّها من مآثر أيّام حضريته الحميدة .

والمدينة كلها عامرة وأهلها أهل تجارة وزراعة وفيها معامل أشهرها : معامل التين والزبيب، ومنها يحمل إلى أوروبا. وفيها من الفاكهة خيرات كثيرة وفيها جريدتان تركيتان إحداهما رسمية وهي جريدة (ايدين) وأخرى اسمها (خدمت) وفيها جرائد رومية وإفرنجية لم يمكني الاطلاع عليها، وفيها مكاتب تركية ورومية وإفرنجية، وفيها ترق عظيم في العلوم والمعارف وهي مركز ولاية (إيدين) وأكبر مدن الاناضول وأشهرها تجارة وثروة .

وبقينا فيها إلى الساعة الحادية عشرة من يوم السبت 22 ذي الحجة، وسافرنا منها يومئذ والبحر شديد الاضطراب هائج الرياح، فجرى بنا الفابور بين تلك الاضطرابات المتوالية، والأمواج الهائلة مدة يومين تقريبا حتى أن حال البحر منعنا الراحة والطعام في أغلب الأوقات.

ومازلنا كذلك حتى وصلنا إلى بوغاز (مسينا) وهو من ممالك إيطاليا فوصلنا إليه في الساعة الحادية عشرة يوم 25 ذي الحجة. وهو بوغاز لطيف كائن بين جبلين خصبين متوسّطين في الارتفاع والمجرى يأخذ من الجنوب إلى الشمال مقدار ساعتين بسير الفابور . وكان مسير فابورنا في السّاعة الواحدة عشرة أميال . وأكثر الاشجار النابتة في الجبلين ، أشجار ظليلة غير مثمرة وليس في هذا البوغاز شيء من القلاع والحصون لعدم تعلقه بحماية شيء من الاراضي . وهذا البوغاز يفصل بين إيطاليا وبين جزيرة (سيسيليا)(14) .

وتوجد شركة فابورات صغيرة تشتغل بحمل الركاب والبضائع بين إيطاليا وبين الجزيرة ، مثل : الشركة الخيرية المعلومة في دار السعادة العليّة . وهواء ذلك البوغاز جيد نقي جدا . ومدينة (مسينا) هذه هي مقر حكومة إحدى ولايات سيسيليا الخمسة ومقدار نفوسها ألف نسمة . وهي من جملة مصايف إيطاليا وأوروبا عموما .

ثم تجاوزنا البوغاز المذكور وسرنا قاصدين مرسيليا فاستمر سيرنا ثلاثة ايام تقريبا لا نرى سوى سطح البحر . وفيه فيروز السماء إلا أن لطف الهواء وركود الماء لم يسلب لنا راحة . فلما كان ليلة الخميس 28 ذي الحجة وحلت

---

14) صقلية .

الساعة الثامنة تقريبا دخلنا الخليج المسمى (كولف دوليون) (15) بمعنى خليج الأسد . وهو خليج مرسى مرسيليا مجراه من الجنوب الى الشمال . وهو خليج شديد الوعرة مضطرب الامواج في كل وقت ولهذا سمّي خليج الاسد . ومازلنا نسير أكثر من ثلاث ساعات . وفي شروق يوم الخميس المذكور وصلنا إلى المرسى .

مرسيليا

هي في جنوب فرنسا على البحر المتوسط ومرساها منتظم جدا. وهي أول مدينة تجارية بفرنسا بعد باريس لانها ممرّ جميع البضائع التي تخرج من فرنسا إلى إيطاليا واليونان والممالك المحروسة ، ودولة الروسيا وإسبانيا والمغرب الأقصى وسنقالية والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والهند . وكمركها غني جدا . وقد وجدنا في ساحة الميناء يوم دخولنا نحو أكثر من ثلاثين فابورا تجاريا . ومراسي الفابورات فيها كمرساها في مدينة أزمير والمدينة مربعة الشكل وعدة نفوسها 350.000 تقريبا . ومبانيها شاهقة إلى خمس طبقات والأزقة متسعة مرصوفة بالأحجار الصلدة ، وسعة الشوارع تختلف من خمسة أمتار إلى اثني عشر تقريبا . وجميعها مستنير بالغاز سواء شوارعها وأزقتها فالليل فيها كالنهار. وأحسن ما شاهدت فيها من المنازه العمومية المحل المسمى (كانبير) (16) ، وهو مجمع عظيم يشتمل على قهاوي وأوتيلات ومباني ودور عديدة وبستان صغير وهو منتزه القوم .

ومن معاملهم المشهورة : معمل الشمع ، ومعمل الصابون ، ومعمل اخر لاستخراج الزيت ، وهو قريب من المكان المسمى (كورس بونابارت) (17) . وهو منتزه اخر من منتزهاتهم .

وعلى مقربة من ذلك المكان ربوة عالية تسمى (كولين بونابارت) (18) بها أشجار ظليلة عظيمة ومياه جارية تنبع من منابع عديدة فتجول في خلال هذا المنتزه ، وهي مشرفة على المدينة وعلى البحر ، ومنظرها بهيج لكن ليس

15) golf de lion

16) Canabière .

17) course Bonaparte .

18) coline Bonaparte .

بها مباني الآن . والطرق الموصلة إلى الربوة سهلة منتظمة بحيث لا تجهد الصاعد ولا يصعد إليها إلا المشاة لتعذر مرور العربات والخيول لوجود بعض درجات وانحناءات أثناء الارتقاء . والمنتزه في قنة الربوة يسمع منه خرير المياه المنحدرة كالآلات المطربة ذات النغمات المختلفة . وفيها عدّة مكاتب (19) مهمة عظيمة الفائدة منها : المكتب التجاري ، وفيه تدرس علوم التجارة . وفيه يدرس اللسان العربي ، وله معلمون من نصارى الشام يهاجرون إليها رغبة في كثرة المرتبات ، وهذا يدل على أن فرنسا تهتم كل الاهتمام برواج تجارتها في البلاد العربية ورعاية منافعها بهذا اللسان .

وأهم الملاهي التي عندهم : الملهى الذي يسمونه (سيرك) (20) وهو محل تلعب فيه الخيل . وقد رأيت من التنظيم وحسن تعليم الخيل ما يذهل الناظر حتى ان الفرس يحسن الرقص جدا ويخيل للمتأمل أن ذوقه للموسيقى لا يخالف ذوق الانسان إلا بكون هذا ذوقه طبيعي في غالب الأشخاص والاخر ذوقه كسبي . وهنالك تظهر اثار التطبع وإنها لتضمحل بسهولة وهي أن الحركات المعتدلة المشاهدة من الفرس في مثل هذا المقام ليست صادرة من تلقاء نفس الفرس وحده بل لا بدّ له من محرك يوقظه لما يلزم من الحركات بضربات مخصوصة وهو الراكب أو المعلم إذا كان الفرس غير مركوب . فلو فرضنا أن جاهلا بتلك الحركات والتعليمات ركب الفرس ما أتى بتلك الألعاب . وقد ترتفع أثمان هذه الخيل بحسب النسل كعادة العرب (بالشرق) المحفوظة بينهم إلى هذا الوقت . ويجعلون لكل فرس مشهور عقدا يذكرون فيه الأصل الذي ينتهي إليه . وقيمة الدخول إلى السيرك من فرنك إلى خمسة فرنكات . والعادة عندهم تعطيل تلك الألعاب في أيام الشتاء وحينئذ يتبدل السيرك بالتياترو (21) .

وسكان هذا البلد لهم اختلاط عظيم بالطليانيين ، ويفهم من تزاحم الطليانيين إلى هذا البلد أن أعظم تجارتهم هي الخدمة البدنية بأن ترسل من

19) يقصد مدارس ومعاهد وهو استعمال عامي تونسي .

20) سيرك : cirque .

21) تياترو : théâtre .

جزرها كجزيرة (سيسيليا) ومن جنوب إيطاليا وغيرهما أولئك العاجزين عن التكسب في أوطانهم لكثرتهم فيها إلى أقطار أوروبا . وقد بلغ ذلك في هذا البلد إلى أن أقلق عدد المتزاحمين أفكار المواطنين فإن عدتهم تبلغ إلى أربعين ألفا ، وإنهم ليزاحمون المواطنين على الخدمات البدنية حتى أن الأمر قد يفضي إلى جدال وتناوش بين الجنسين . وممّا زاد رغبة الاعتناء بهم وعداوة الفقراء الفرنسيين لهم أن الخادم الفرنسي لا يقنع بثلاثة فرنكات في اليوم ، وأن الايطالي يرضيه النصف من ذلك فبالطبع أن أرباب المعامل وأصحاب البناء والأشغال الكثيرة يقدمون استخدام الايطالياني على بني وطنهم . وأولئك الطليانيون يسكنون في محل مخصوص بهم معنون بأسمائهم . ومساكنهم قذرة فهم مضرون لأهل البلد من جهتي التزاحم وجلب الأوساخ .

وأقمنا بها يومين وكانت إقامتنا في أوتيل قريب من (كورس بونابارت) وفي الساعة الثامنة من يوم 29 ذي الحجة سافرنا منها إلى (بوردو) . والطريق من مرسيليا إلى (بوردو) مسير اثنتي عشرة ساعة بسير طريق سكة الحديد وهو يقطع في كل ساعة سبعين ميلا .

والمحطات عديدة وأغلبها على مدن وقرى عامرة كثيرة المسافرين والبضائع . وأقل المحطات انتظاما يوجد فيها أوتيلات ولوكندات (22) تكفي لمبيت المسافرين وراحتهم في المطاعم والمشارب ، إلا أن الأسعار فيها مرتفعة بالنسبة لمراكزها . ومما يشوق الخاطر ويروق الناظر إحاطة كافة سكة الحديد بالأشجار الظليلة من الجانبين بحيث لا يكاد الناظر يتمكن من الاحداق اليها مع جسامتها لشدّة الحركة والسير فتمرّ مرّ السحاب وتختطف الأبصار اختطاف البروق ، كل ذلك دلالة على نمو العمران والترقي في بلاد فرنسا .

ويوجد في أثناء الطريق بعض جبال اخترقتها يد الصناعة بالقوة الفعالة ، فمررنا من عدّة ثقوب (23) أكبرها ما يستمر فيه سير القطار مقدار ثماني او تسع دقائق ، وعليه فتكون مساحته أكثر من عشرة أميال . وأكثر الأراضي التي

---

(22) لوكندة (ايطالية) بمعنى فندق صغير لايواء المسافرين .

(23) يعني النفق : ج . أنفاق وهو سرب في الأرض له مخرج الى مكان معهود ومنه نفق السكة الحديدية .

مررنا عليها من هذا الطريق أراض فلاحية ، وأكثر أشجارها كروم العنب وهو من أعظم متاجر ذلك القطر . ولما وصلنا إلى (بوردو) ركبنا في فابور اخر وقصدنا مدينة (ايرون) .

ومدينة (بوردو) هذه وإن لم نتجول فيها إلا أننا نظرنا ما لاح لنا منها فإذا هي مدينة عامرة ، لكنها دون مرسيليا جسامة وتجارة . وهي على الجنوب الغربي من باريس وشمال (ايرون) ، كانت مدّة السير ست ساعات ، وحال الطريق تنظيما مثل الذي سبق .

و« ايرون » هذه أول مدينة من مدن إسبانيا على حدود فرنسا فإننا لما قربنا منها وقف بنا الفابور على واد فوجدنا محطة إسبنيولية فركبنا الرتل الاسبنيولي ودخلنا الى (ايرون) وكان في المحطتين المذكورتين حرس وعساكر وما يلزم من رجال الحكومة من قبل كلّ من الدولتين . ومدّة المسير من هذه المحطة إلى المدينة كانت عشر دقائق تقريبا . والحدّ الفاصل بين الحكومتين هو تلك المدينة . وكان وصولنا إليها في الساعة الواحدة بعد الزوال من غرة المحرم سنة 1305 ، ولم ننزل بها بل استمرّ بنا الفابور إلى مدينة (مدريد) فوصلناها بعد خمس عشرة ساعة تقريبا ، ويقطع القطر في كلّ ساعة منها خمسين ميلا بخلاف سكّة الحديد بفرنسا وذلك لموانع طبيعية وهي كثرة الجبال المرتفعة والاودية المنخفضة وانحناءات الطريق فإننا قد مررنا من خمسة وثلاثين ثقبا بين (ايرون) و (مدريد) . أقل تلك الثقوب يعبره الرتل في خمس دقائق ، وأعظمها ما يعبره في عشرين دقيقة وهي مسافة عظيمة تحت الجبال ذات خطر على الركاب والقاطرات. فإن من المشهور عندهم الذي تلقيناه بالتواتر عن الرجال العارفين منهم أن جماعات من الاشقياء يتفقون على توريط فيأتون بالسلاح والعدد العديد إلى تلك الثقوب العظيمة ويلقون أحجارا ضخمة على قضبان الحديد أو يقتلعون تلك القضبان نفسها حتى إذا مرّ الرتل صادم تلك الاحجار أو غاص في الارض فيقف وحينئذ يهجمون على الركاب فيسلبونهم ويقتلون من يمتنع منهم من التجرّد . والحكومة المحلية تحاول منع ذلك بالاسباب الفعالة .

والطريق في تلك الجهات ممتدّ بين أراض فلاحية قليلة ذات خصب

بالطبع إلا أنها محرومة من الترقيات الصناعية لتقاعس الأهالي عن الجدّ والجهد الذي اعتاده الفرنسيون في أعمالهم الزراعية والصناعية .

سانحة

إذا تخلّل الانسان بين هذه الجبال الشاهقة العديدة وتدبّر في أحوالها يظهر له جليا أن هذه المواقع الطبيعية هي السبب الذي أنقذ أوروبا من هجوم العرب على بلادهم . نعم إن العرب اخترقوا هذه الصعوبات عنوة وقادوها قسرا ودخلوا ممالك فرنسا إلى أن وصلوا مدينة (بواتيه) (24) . وهي على مقربة من باريس وهنالك وقعت المعركة العظيمة والملحمة المشهورة بين الخليفة عبد الرحمان الداخل (25) وبين أمير الافرنج (شارل مارتيل) (26) ، وطالت الحروب بين الأمتين واضطر العرب للانجلاء عن تلك الديار لعدم قعودهم على شدة البرد ومقاومة أخطار الثلوج والمسألة مشهورة لا لزوم لاطالة الكلام عليها . والجبال المذكورة هي التي منعت العرب من التسلط على شمال إسبانيا زمنا طويلا لأن حكم العرب لم يكن نافذا في تلك الأمم إلا باستناده على القوة القاهرة وقصاراها عندهم الخيل والأسلحة الجارحة ، وهي إنما يتسع ميدانها . ويمكن جولانها فى الاودية والسهول لا فى الروابى والجبال .

مدينة مدريد

كان وصولنا اليها ثانى يوم من المحرم فى الساعة الرابعة بعد شروق الشمس وعندما وصلنا إليها ذهبنا إلى دار السفارة العثمانية الكائنة فى وسط المدينة

---

24) Poitiers .

25) أخطأ الوردانى اذ أن الذي اصطدم بشارل مارتيل فى مدينة (بواتيه) وقتل فى المعركة التي عرفت ببلاط الشهداء (732) هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي. لا عبد الرحمان الداخل المعروف بصقر قريش (113 . 172 هـ / 731 . 788 م) .
انظر : الموسوعة العربية الميسرة : ط 1 ص 1181 . 1183 .

26) شارل مارتيل : ولد نحو سنة 685 . تولى الحكم فى أوسترازيا (719) وحارب الساكسون . اوقف الزحف العربى بقيادة عبد الرحمن الغافقى فى اكيتانيا (معركة بواتيه . بلاط الشهداء) سنة 732 . انظر : الموسوعة العربية ص 1066 .

على قرب من نظارة العدلية ، وهي في غاية الانتظام وفيها تلاقينا مع صاحب العطوفة طرخان باي سفير الدولة العثمانية ، فرحب بنا وأكرمنا وقدمنا له الأوراق المتعلقة بالمأمورية ، فاستعمل الحزم التام ودعانا إلى الطعام من تلك الليلة فمضينا ساعات كثيرة مع حضرته في مذاكرات علمية . ويتبين لي ممّا أبصرت وسمعت من احواله وسيرته ومحاضرته فى طول مدّة اقامتنا بإسبانيا أنه رجل من أجلّ علماء السياسة وله معرفة تامة بالتاريخ وسائر الفنون ، محبّ لتقدم الدولة ، ممدوح السيرة ، حسن الخلق ، كريم الطبع ، وقور محترم بين سفراء الدول العظام .

أما مدينة مدريد فإنها كائنة في وسط المملكة الاسبنيولية وهي النقطة المركزية بالنظر إلى المواصلات العمومية إذ إليها ينتهي طريق كل مدينة من مدائننا ، ويحيط بها صحراء عظيمة خالية من النبات . ومدريد قرية قديمة كانت العرب تسميها (مجريط) كما أخبرني بذلك بعض المحققين في إسبانيا . وممّا يؤيد ذلك أني وجدت بعض الكتب منسوبة للمجريطي (27) .

واستمرت قرية حتى غيّرها الملك (فيليب الثاني) (28) ابن الامبراطور (شارلكان) (29) فجعلها عاصمة مملكته منذ أكثر من ثلاثمائة سنة . أما مبانيها فمنتظمة على الطراز الاوروباوي ، قد ترتفع إلى الطبقة الثامنة ، وكل الابنية بالاحجار . ويوجد على أبواب كثيرة من الدور والقصور نقوش متقنة ملونة مأخوذة من اثار العرب كما استفدناه من مشاهدة النقوش العربية ببلاد الأندلس ؛ إلا أن الأهالي زادوا عليها شيئا من الطرز الافرنجي بحسب تبدل الذوق والعادات . والطرق فيها متسعة ومرصوفة بالأحجار تختلف السعة فيها اختلافا عظيما فربما رأيت طريقا يتسع جانباه إلى نحو الثلاثين

---

27) المجريطى : ولد في مجريط (اسبانيا) رياضي وفلكي وكيميائي وطبيب عربي . سافر الى الشرق وعاد بالمخطوطات اليونانية والعربية فدرسها وقرب منالها لاهل الغرب . توفى نحو 1007 . له كتاب « تعديل الكواكب » . انظر الموسوعة العربية الميسرة : ط 1 ص 1648 .

28) فيليب الثاني : (1527 . 1597) ملك اسبانيا : أرسل أسطول « الارمادا » لفتح انكلترا فدمرته العواصف . انظر الموسوعة العربية الميسرة ص 1353

29) شارلكان : ولد سنة 1500 . امبراطور الغرب (1519 . 1556) وملك اسبانيا (1516 . 1556) احتل تونس (1535) انزوى فى دير يوست وتوفى فيه . انظر : الموسوعة العربية ص 1065 .

مترا ، ثم انتهيت إلى طريق اخر لا تكاد العربة الواحدة تمر منه . وهي كلها منورة بالأنوار الغازية وليس فيها شيء من الآثار العربية . أمّا أهاليها فعلى غاية من اللطف والبشاشة مع الأجانب إلّا أن الفقراء فيها كثيرون جدا وإذا وجدوا أجنبيا أحاطوا به وربما منعوه من المرور ، وحالتهم سيئة جدًا ، ومن الغريب أن الاوروباويين يعيبون علينا لوجود السؤّال في بلادنا والشحاذون عندهم أشد نكبة وأبرد قلبا ممّا هم عليه عندنا .

وفي مدّة إقامتنا بهاته المدينة ذهبنا إلى المكتبة العمومية ، وهي مباحة الدخول لكلّ من أراد . وتشتمل على عدد عظيم من الكتب بأنواعها . وفيها خمسمائة كتاب عربي انتخبنا منها مقدار سبعة عشر كتابا يأتي تفصيلها في جدولها المخصوص . وهي أربع طبقات ومتسعة جدًا إلا أنها مظلمة بحيث لا يكاد المصور الشمسي أن يأخذ رسمها . وتفتح هده المكتبة ست ساعات في النهار ما عدا يوم الأحد والأعياد . ومديرها معتبر جدا في نظر الحكومة والأهالي ، وقد زرناه في دائرته فوجدنا صور علماء إسبانيا المشهورين في محله . يزوره العلماء من كل جانب ويعظمون تلك التماثيل . ومنها صورة (كرستوف كولومب) (30) مكتشف أمريكا .

وفي يوم 3 محرم زرنا دار التحف (الفلبينية) وقد صحبنا حضرة « نكولاي أفندي » مترجم السفارة العثمانية العلية بأمر حضرة السفير فذهبنا اليها وهي واقعة في طرف المدينة مما يلي شرقيها بجوار منزه ايزابيل) (31) والدة الملك الذي افتكه المجلس البلدي منها منذ عهد قريب .

ودار التحف هذه كائنة فى حديقة مربعة الشكل ، محوطة أطرافها

30) كرستوف كولمب : (1506-1451) بحار رائد . ولد في جنوى (ايطاليا) وتوفي في اسبانيا . مكتشف امريكا .
انظر : الموسوعة العربية الميسرة ط.1 ص 1511 .

31) ايزابلا الثانية (1830 - 1904) ملكة اسبانيا (1833 - 1868) خلفت أباها فرديناند السابع تحت وصاية أمها ماريا كريستينا وقد نازعها الملك عمها دون كارلوس فنشبت الحروب الكارولوسية . وتزوجت ابن عمها فرانسيسكودي أسيس (1846) . وكان حكمها مضطربا غيرمستقر نتيجة الاحزاب وقيام الفتن العديدة . خلعت سنة 1868 فقصدت فرنسا وأقامت بها ، ثم نزلت عن دعواها في العرش (1870) لصالح ابنها الملك الفنصو 12 . انظر الموسوعة العربية الميسرة ، ص 284 .

بدرابزان من الخشب ذات أبواب عديدة يدخلها المتنزهون من الأهالي على اختلاف طبقاتهم مجانا ، وتحته باب مخصوص موصل لدار التحف نفسها يجب على الداخل فيه ان يدفع قيمة زهيدة تساوي نصف فرنك ويأخذ تذكرة من الباب . فدخلنا من ذلك الباب ودفعنا القيمة المقررة ومشينا في طريق مستقيم بين الأشجار مقداره 20 مترا ودخلنا الى دار التحف . وهي عبارة عن دار مربعة الشكل ذات حجرات متعددة متقنة النظام والبنيان تختصّ كلّ حجرة منها بنوع من التحف وكلها مبنية بالأخشاب الطبيعية . فدخلنا جميعها وهي فوق الثلاثين وكل ما فيها من تحف جزائر (فيلبين) التي هي إحدى مستعمرات إسبانيا في أستراليا (32) وأكثر أهاليها مسلمون .

وبينما نحن نتجوّل بها تلاقينا مع جناب ناظر معارف إسبانيا ومعه وزير الخارجية ووزير المستعمرات (ومسيوكيستلار) رئيس جمهورية إسبانيا قبل استيلاء (ألفنص) الثاني عشر (33) ، فقدّمنا إليهم حضرة الترجمان وعرّف كلانا بالآخر فلاطفونا كل الملاطفة ، وسألونا عن أحوالنا ومأموريتنا وكلّ منهم أثنى على السلطان المعظم من تعهده هذه الآثار التي خلفها المتقدمون للمتأخرين . فدارت بيننا محاورة أدبية برهة من الزمان . ووزير المستعمرات هذا هو من مشاهير علماء إسبانيا وشعرائهم المجيدين .

أمّا « كيستلار » فإنه قد نال من عموم المجتمعات العلمية في أوروبا أرفع نياشينها . وله باعٍ طويل ، واطلاع عظيم في جميع العلوم لا سيّما التاريخ والجغرافيا والانشاء والشعر ، وله منزلة عالية في فن القصص والروايات الأدبية ، وله مكانة عامة عند كبراء إسبانيا حتى أنهم يلقبونه بالخطيب العام ، لسموّ اقتداره في الخطب . وهو رئيس أحزاب الجمهوريين وعضو منهم في مجلس الأمة وهو مضرّ جدا بالسياسة الملوكية ، ملتهب الفكر ، يريد بعلمه واقتداره اللساني أن يبدد شوكة الملك ويؤيد الجمهورية بما يسلكه من التدرجات السياسية .

32) الفليبين : جمهورية بجنوب شرقي اسيا مساحتها حوالي 410 297 كم2 . عبارة عن أرخبيل يشتمل على 7000 جزيرة . غزاها الاسبان سنة 1564 .

33) الفنص 12 (1857 - 1885) ملك إسبانيا (1870 - 1885) ابن ايزابلا الثانية . عاش في المنفى (1868 - 1875) خلال الثورة الكارلية . نودي به ملكا 1874 . وعاد الى مدريد 1875 . أعاد النظام . انظر الموسوعة العربية ، ص 204 .

ثم إن حضرات أولئك الوزراء عرّفونا بمترجم جزائر (فليبين) العام وكان قد حضر إلى مدريد من بعض أيام قلائل وجاء معهم للتجول في المتحف . والغريب أنهم لمّا عرّفونا به قالوا لنا : إنه يعرف اللغة العربية المستعملة في جزائر (فليبين) فلمّا تكلمنا معه تكلّم بكلام لا ندري ما هو ، يزعم هو أيضا أنه عربي وليس من العربية في شيء . ودار الكلام بيني وبينه بالفرنسوية فأخبرني أن هذه اللغة هي لغة المسلمين في (فليبين) وأنه يعتقد أنها عربية . وأردت أن أسأله عن أحوال القوم هنالك فأخبرني أن جميع ذلك يعلم من هذا المتحف .

ثمّ جلنا الحُجَرَ المذكورة ، فرأينا أشياء كثيرة وجميعها من أراضي (فليبين) استحضرتها الحكومة وجمعتها في هذا المتحف . وهذه الآثار هي على أقسام عديدة : أجسام جميع الطيور والوحوش والحيوانات والهوام والدواب مصبّرة باقية على حالها . والصنائع ، ومن ذلك رجال ونساء من أهالي تلك الجزائر يجلسون ويجلسن في حُجر مخصصة للفرجة عليهم وهم مربوعو القامة ، لونهم يميل إلى لون الذهب وشعورهم محمرة تميل إلى الجعودة إلا أنها فيهم أقل من السودانيين ، وملابسهم التي رأيتهم بها ملابس إفرنجية لكن لا أدري أتلك عادتهم في بلادهم أم الاسبنيولبون ألزموهم بلبسها ، فإن كان الأول كان بعيدا وإن كان الثاني كان عجيبا . فإن مثل هذا المتحف يجب أن تراعى فيه سمات القوم اللهم إلا أن يكون ثمة موجب اخر .

أما الطيور التي رأيتها فإني ما أعهد أمثالها فيما رأيت من البلاد ومنها جارح ليلي . وأمّا الوحوش فقد رأيت منها ما أعهده مثل بقر الوحش وغير ذلك . وأما الهوام فقد رأيت أنواعا من الثعابين منها ما يقتدر أن يبلغ الهرّ . [!] * .

ثمّ خرجنا من المتحف للتفرج على قصر البلور وهو كائن في نفس الحديقة على مسافة نحو العشرين ذراعا كل بنيانه وسقوفه وجميع ما فيه من البلور إلا أنه غير تام البناء ولذلك لم نتمكن من الصعود إليه . ومن المقرّر عندهم أنه سيتم على ثلاث طبقات ويتخذ منزها عموميا .

* كذا في الأصل .

وفي الرابع من محرم ذهبنا إلى ميدان الثيران مع حضرة السفير وترجمانه ، وتفرجنا على ما كان هنالك من الألعاب العجيبة والأحوال الغريبة . ولما كان أهل الميدان وألعابه من أهم ما يذكر عن مدريد فقد وجب علينا أن نأتي هنا على ما يشمل بيان كيفيته فنقول :

ميدان الثيران في مدريد

هذا الميدان كائن في وسط المدينة وهو على شكل دائرة محاطة بدرابزان (34) من خشب . يجلس المتفرجون بأربع طبقات على الهيأة المعروفة (بأنفيتياتر) (35) . فجلسنا بالطبقة الأولى وكان عموم المتفرجين نحو العشرين ألفا على اختلاف الطبقات والمراتب إناثا وذكورا .

وكيفية اللعب أن يدخل إلى الميدان رجال من عشرة إلى خمسة عشر وهم ينقسمون إلى أربعة أقسام وكل منهم متدرع :

قسم بأيديهم قراطيس حمر يستقبلون بها الثور ليذهلوه لأن من عادة الثور الوحشي ان يذهل من رؤية اللون الأحمر كما يذهل الأسد من النار والفيل من الديك .

وقسم بأيديهم خرق قد نسجت فيها أنصل حادة شديدة التأثير فإذا هجم الثور على أحدهم استقبله ضربا على عنقه أو ظهره فيؤلمه فيضطر للتأخير عنه .

وقسم يركبون الخيل وبأيديهم رماح يطعنون بها وربما أصاب الثور الفرس فيرفعه على قرونه ثم يلقي به وبفارسه إلى الأرض . وفي الأغلب أن الفارس لا يصيبه من ذلك شيء لكونه متدرّبًا على هاته الأعمال وفي غاية الخفة بحيث إن الثور متى رفع الفرس على قرنيه وأراد أن يلقي به يثب

34) الدرابزان : في الفارسية : دربزين بفتح الدال وسكون الراء وفتح الباء ويرى أحمد عيسى بك في « المحكم » في أصول الكلمات العامية أنها من اليونانية ، وتعني الحاجز .
انظر : د. أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، القاهرة 1979 ، ص 96 .

35) Amphithéâtre : مرسح وهو مكان معدّ للتمثيل أو اللعب أو الرقص . ج. مراسح .

فارسه إلى الأرض بدون أن يصيبه أدنى ضرر ؛ غير أن الخيول التي يستعملونها في هاته الميادين خيول متوسطة ضنا بجيادها وأثمانها .

والقسم الرابع بأيديهم سيوف مسلطة يهجمون بها على الثور أو يدافعون بها عند الحاجة .

ويشترط على هاته الأقسام التعاون على قتل الثور بالصفة القانونية عندهم في عرفهم وهي أن يقتل من نحره طعنا بالرمح أو ضربا بالسيف . ولا يجوز قتله بغير هاته الصفة مطلقا . حتى أن الذي يقتله بكيفية أخرى يجازى بالسجن والغرامة . وتلك من نصوص قوانينهم المرعية . ولكل من قتل ثورا خمسة الاف فرنك . وفي نظير ذلك لا تكون الحكومة ولا الجمعية مسؤولة عن دم أحد المبارزين إذا قتله الثور .

ومن القواعد عندهم أن أولئك المبارزين يذهبون في صبيحة اليوم أوّلا إلى الكنيسة فيستغفر لهم القسيسون ويُلقّنونهم الكلمات الدينية ويدعون لهم بالنصر على الثيران ثم يأتون إلى الميدان . ويحضر هنالك مكاتبو جرائد الثيران وهى جرائد متعددة فى مدريد لا تبحث إلا فيما يتعلق بأحوال هذه المبارزة وكيفية جريانها ، وأن المكاتبين المذكورين يحضرون في أثناء اللعب وينقلون ما يرون في وقته وساعته ويرسلونه إلى إدارات جرائدهم بغاية السرعة بحيث إن المتفرجين لا يخرجون من هذا الملعب إلا وقد انتشرت الجرائد . ويباع من عمومها الاف كثيرة في ذلك اليوم ؛ لكن أخبرني كثير ممن لقيت أن لهم عادات واصطلاحات مخصوصة لهذه المبارزة يتوقف علمها على زمن مديد حتى أن الانسان الأجنبي لا يمكنه أن يعرف مستعملات تلك الجرائد إلا بعد معرفة العرف والاصطلاح الخاص ولو كان عالما بلسان القوم . فإذا حضر المتفرجون والمكاتبون والمبارزون على الصورة التي شرحنا متنها وفصلنا بيانها جيء بالثور من باب مخصوص . فاذا دخل إلى الدائرة وشاهد المبارزين في وسطها يشتدّ غضبه ويهجم عليهم هجوم الأسد بل أشد من ذلك . ويخور في بعض الأحيان خوارا هائلا فيفرون من بين يديه سراعا ويتظاهرون من فوق الدرابزان حتىّ تسكن ثورة الثور ثم يعودون عليه وكل قسم يشتغل بأعماله . وهكذا يستمر الكفاح بينهم وبينه حتى يقتل ثم يؤتى بغيره وهكذا يكون الشأن الى أن ينتهى اللعب .

وفي اليوم الذي تفرجنا فيه لم يمت أحد من الآدميين ولكن كسرت ساق أحدهم مع كونه مدرعا بالحديد ومات اثنا عشر فرسا وأربعة ثيران ولم يحصل تلف غير هذا . وهذه المبارزة تكون هكذا في كل يوم أحد والثلاثاء والجمعة أيام الربيع والصيف وأول الخريف حيث تكون الحرارة شديدة في القطر الاسبنيولي ، ويكون الثور قويا هائجا بحسب غلبة الدم . أما إذا دخل فصل الشتاء فتعطل ألعاب الثيران لضعفها وتستبدل بأنواع التياترات . وهذه الميادين والمبارزات لا تختص بمدريد فقط بل هي من القواعد المقررة في مدينة (برشلونه) وطليطلة وأشبيلية وبلنسية وقرطبة وغرناطة وغيرها من مدن إسبانيا وقصبتها الكبيرة بل إن هذه الألعاب قد أثرت في أهالي جنوب (فرنسا) القاطنين بحدود (إسبانيا) واشرأبت له الأهالي . ونظرت الحكومة الفرنسوية إلى سريان هذا الداء في أهاليها فخشيت من تعميمه فقررت منعه منعا كليا فى بلادها ، وجعلته من الجرائم والجنح القانونية ومع ذلك لم تستطع منعه ، ولم يزل أهل الحدود في فرنسا يستعملون هذه المبارزات ويستحضرون إليها من يلزم من مبارزي الاسبانيوليين في كل عام وهذه المبارزة جارية جريانا كليا كذلك في حكومة (البرتغال) .

وممّا استفدته عن أحوال هذه الثيران أنها تربّى في دوائر مخصوصة ورعاة مكلفين مدربين لا تنقاد إلّا لهم حتى أن الثور العظيم الذي يندهش عند رؤيته المتفرجون فضلا عن المناجزين يذل ويخضع لراعيه في أشد ثورة الغضب ، وذلك باثار التربية والتعود .

ومن الغريب أن الثور إذا تحقق الغلبة ويئس من مقاومة المبارزين اضمحلت قواه تأثر تأثرا شديدا وجرت دموعه كما يبكي الانسان . وهو دليل على التأثرات القلبية عند الحيوان . ومنذ سنين جرت مكافحة في ميدان (بلنسية) بين الثور وبين الأسد فقتل الثور الأسد ثمّ سلط عليه نمر فقتله كذلك . وقد أخبرني بهذا قنصل الدولة العلية بالبلد المذكور . ومما بلغ من التواتر عندهم أن هذا الثور لا يغلبه في الكفاح من الحيوانات إلا نوع (البلدق) (36) من الكلاب لأنه دائما يحارب الثور من خلفه فيضطر إلى الفرار .

---

(36) البلدق : Bouledogue : كلب أقطم مبطط الأنف .

ولقد سألت بعض الناس عن كيفية اهتمام الأهالي بهذا اللعب واستعظمت تهافت الفقراء على حضور الملعب فأجابني بأن الفقير إذا لم يجد من الاستطاعة شيئا باع قميصه ودفع القيمة للدخول والتفرج ، وأن الحكومة لو أرادت أن تمنع الأهالي من التفرج أو منع وجود هذه الألعاب لقامت ثورة عمومية في إسبانيا .

وللمبارزين احترام عظيم بين الأهالي حتى بلغني أنهم يجالسون الكبراء ويخالطون الوزراء . واستددللت على صحة ذلك بما شاهدته من العربات التي ركبوها عند خروجهم من الميدان وإقبال الأهالي عليهم .

ولقد سرى الميل إلى هذا اللعب من الأصاغر إلى الأكابر حتى صارت من عادات الكبراء أن يحتفلوا باتخاذ ميادين خاصة لمبارزة الثيران ، وتجتمع العائلات الكبرى وتتخذ ملعبا يبارز فيه أفرادها الثيران ويدعى إلى مشاهدته جمّ غفير من الأمثال والأقران ومن عاداتهم في الميادين الخاصة أن بعض العظماء يقدم أوراقا مالية تبلغ ألفي فرنك فصاعدا إلى من يختار من المبرزين ليخطب بمديحه خطبة على الجمعية الحاضرة ويعدون ذلك فخرا ومأثرة بينهم .

ونورد هنا ملاحظة لا تخلو من فائدة وهي أن هذه الألعاب قد أثرت في أخلاق الاسبانيوليين شدّة وحماسة لتعودهم دائما على مشاهدة الدماء وسفكها واستهانة الخطوب وارتكابها ، إذ ينشأ الاسبانيولي على حضور تلك الميادين ثلاث مرات في الأسبوع ، ويرى المقاتلات الشديدة وتهافت الناس على هذا الأمر الفظيع فتعتاد نفسه على مقاتلة أمثالها ، ثم يصير لها ارتياح وميل إلى تقليد أربابها . وهذا أمر عام في الاناث والذكور . ولهذا لا تكاد اسبانيا تخلو من الشغب والقلاقل لتعود النفس فيها على الاستهانة بالأمور . وهناك أمر اخر وهو أن هذه الألعاب تشغل ألوفا مؤلفة عن الأعمال ثلاث مرات في كل أسبوع . ولا يخفى ما يؤثره هذا التعطيل في الأحوال المدنية بأقسامها مادة ومعنى ، إذ يتعطل الصانع عن صناعته والتاجر عن تجارته والمحترف عن حرفته .

أما تأثيره في الأذهان فهو مهمّ جدّا ، إذ يمنعها في الأعمال الراهنة من الاسترسال في تتبع العلوم والمعارف . ولعل هذا هو من الأسباب التي حطت

درجة الاسبانيوليين في النظر المدني والمجتمعات العلمية عن أوروبا . وهو الذي منعها من استكمال دواعي الثروة العمومية ؛ فإنك إذا حسبت مدة التعطيل بهذه الألعاب في مدّة ستة أشهر وجدتها اثنين وسبعين يوما ، وإذا أضفت إليها أربعا وعشرين أحدا كانت ستة وتسعين يوما في كل مائة وثمانين ما عدا الأعياد الدينية التي لا تقل في تلك المدة عن أربع وعشرين أيضا ، وعلى هذا لا يتفرغ الأهالي لأعمالهم في مدة الربيع والصيف إلا ستين يوما وهو عبء عظيم على كاهل الأمة مضيع من ثروتها الطبيعية والصناعية .

هذا فضلا عما تفقده الأمة من الخيل والرجال ونفس الثيران ، وما يتبع ذلك من المصاريف والأتعاب في تربيتها وتمرينها فإن ذلك مضر بالاعتضاد المدني مهما كانت الحال .

نعم إن إسبانيا تستفيد من ذلك شيئا واحدا في نظير هذه الخسائر كلها وهو تربية الشجاعة والاقدام . ومن المعلوم أن الشجاعة والاقدام أيضا لا يحسبان إلا اذا استعملتهما قوة الحكمة بدون إفراط ولا تفريط .

ولمّا كانت مأموريتنا الاطلاع على الكتب العربية في إسبانيا عرضنا على حضرة الشّهم الهمام « طرخان باي » التماس المعاونة فأشار علينا بالذهاب إلى مدينة (الاسكريال) أولا ؛ ولكن لمّا كانت مكتبتها مكتبة خاصة يتوقف الدخول إليها على صدور أمر ملوكي استحصل لنا أمرا من جلالة الملكة يرخص للمأمورية الاطلاع على الكتب العربية الموجودة هنالك .

وفي 7 من المحرم أرفق معنا حضرة ترجمان السفارة وسافرنا من مدريد على طريق السكة الحديدية الى الاسكريال .

الاسكريال

وصلنا إليها في الساعة الحادية عشرة صباحا فنزلنا إلى المحطة . وهي محطة لطيفة بعيدة عن قصبة البلد بمسافة ميل. وفيها بعض العساكر المسماة عندهم قارد ناسيونال) (37) اي الحرس الأهلي . وهي من قواعد إسبانيا

(37 garde Nationale .

العمومية في كافة المحطات . وبعد ما نزلنا لم نجد للركوب إلا عربات تشبه عربات الترامواي إلا أنها أصغر منها ، وتركب من خلف يجرها زوج من الخيل وليست على شيء من الانتظام ومجراها ليس على سكة حديدية وأجرتها تختلف . وعلى حافتي الطريق أشجار ظليلة كبيرة ، والاراضي التي رأيناها هنالك فيها نوع ما من الزراعة والبقول . ودخلنا القصبة واذا شوارعها وبنيانها منتظمة انتظاما نوعيا حتى وصلنا إلى أهمّ أوتيلات البلد . وبعدما استرحنا به قليلاً ذهبنا إلى أسقف كنيسة الأسكريال فدخلنا إلى القصر المشهور بقصر (فيليب الثاني) وتلاقينا معه فرحب بنا . وأبلغه الترجمان أمر جلالة الملكة فأجاب بالقبول ورخص لنا في مطالعة الكتب . ثمّ إن الترجمان استأذن لنا في التفرج على القصر من مديره الخاص وحضر إلينا في حجرة الأسقف وتلاقينا معه ثمّ خرجنا جميعا للتجوّل فيه .

هذا القصر أسسه الملك فيليب الثاني ابن القيصر شارلكان الشهير منذ أكثر من ثلاثمائة سنة وهو قصر عظيم هائل ذو أربع طبقات وفيه من بدائع الصنع والاتقان ما جعله محلا لقدوم كثير من سواحي أوروبا وعلمائها فهم يفدون عليه في كلّ وقت ويكتبون عنه مشهوداتهم (38) حتى صار التعبير عنه عبارة عن تحصيل الحاصل . وهو الذي أوجب الشهرة التامة لقصبة الأسكريال على صغر حجمها وقلة أهمّيتها في نظر إسبانيا فضلا عن أوروبا . وفي جدران القصر المذكور رسم غالب محاربات دولة إسبانيا سواء كانت مع العرب أو مع غيرهم من الدول حتى أني رأيت بعيني رسم المحاربة المشهورة التي وقعت في خليج (اللينت) بين الدولة العلية وإسبانيا لكن هذه الوقائع مرسومة بكيفية لا تكاد توصف إلا بلسان المشاهدة .

وممّا يجب ذكره أيضا الحجرتان اللتان بناهما فيه الملك (فيليب) المذكور فإن كل واحدة منهما تكلفت في زمانه بخمسة ملايين فرنك .

وهما حجرتان مستطيلتان ، أبوابهما وحيطانهما وسقوفهما مذهبة مزينة بالنقوش وحلقات الأبواب والمفاتيح من الذهب والفضة .

ومن ذلك قاعة الطعام فإن فيها مائدة تسع مائة وخمسين نفرا وهي في

38) مشاهداتهم .

غاية الاتقان أيضا . ومن ذلك حجرة الملك الخاصة التي كان يستقبل فيها السفراء ، وهي حجرة عادية . وفيها مكتبته بأدوات الكتابة وكراسي السفراء كلها من الاخشاب وكذلك كرسيه . وفي داخل هذه الحجرة حجرة نومه وهي صغيرة جدا لا تكفي إلا لسرير واحد ، وفيها سريره الذي كان ينام عليه . فإذا رأيت القصر وما تحته من مظاهر العظمة رأيت ملكا مهابا . وإذا دخلت إلى حجرة النوم رأيت (فيليب الثاني) كان يدرس دروس الزهد على (ديوجين) (39) .

وأما الكنيسة فانها من اثاره أيضا . تحارب مع حكومة فرنسا في جهة البلجيك ونذر إن ظفر في حربه ببناء كنيسة عظيمة ، فغلبها فبناها وصرف عليها أموالا عظيمة بدلالة إتقان بنيانها . وقد اتخذت هذه الكنيسة مقبرة لملوك إسبانيا من عهد شارلكان المذكور إلى الملك المتوفى منذ سنتين .

ثم مكثنا عشرين يوما نتصفح الكتب في المكتبة مدة ستّ ساعات في كل يوم ما عدا يوم الأحد . وهذه المكتبة وإن كانت في ذات القصر إلا أنها تحت نظر الأسقف وكافة خدمها من القسيسين وهي متقنة جدا وفيها 84000 مجلدا منها ألفان وكسور كتب عربية انتخبت منها 408 كتابا فانظر إلى الجدول في اخر الرحلة .

ومدّة اقامتنا بالأسكريال وقع اجتماع المؤتمر العلمي بالكنيسة وقد حضره أكابر علماء أوروبا وعددهم 250 نفرا . وبعدما فطر العلماء قام رئيس كل شعب وألقى خطابا علميا أدبيا سياسيا ثمّ افترقوا . وهذا المؤتمر يقع مرة في السنة بالكنيسة باستدعاء دولة إسبانيا للعلماء الأجانب على اختلاف الأجناس .

مطالعة مهمة

يتبادر إلى كثير من الأذهان أن الكتب العربية الموجودة في هذه المكتبة هي من مخلفات أهل الأندلس بل إن كثيرا من السواح اكد هذا الزعم فيما كتب من

39) ديوجين : Diogène (412 - 323 ق.م) فيلسوف يونانـ[illegible] الكلبيين . عاش في أثينا داعيا إلى البساطة . انظر الموسوعة العربية ، 840 .

رحلته . وليس الأمر كذلك فقد أظهر لي التحري والتحقيق وكثرة المحاورة والمذاكرة مع أرباب الوقوف والاطلاع أن الاسبانيوليين لمّا ملكوا الأندلس أشار عليهم رؤساء الأديان بحرق الكتب الاسلامية لا سيما الدينية ، فكانوا كلما تمكنوا من بلاد أحرقوا كتبها إلا ما بقي عند بعض الأفراد . وأن هذه الكتب هي من كتب زيدان أمير المغرب (40) كان اشتراها من المشرق وبينما مأموروه قد قدموا بها إذ فاجأتهم سفن إسبانيا الحربية قريبا من بوغازسبتة (جبل طارق) فغلبتهم وغصبت هذه الكتب ، وأحضروها إلي الملك (فيليب) فأنشأ هذه المكتبة ووضعها فيها ، فهي في التحقيق من كتب حكومة مراكش لا الأندلس . والذي يدل على صحة ما ذهبت إليه ما شاهدته مكتوبا على أغلب الكتب من أنها ملك الأمير زيدان المذكور .

وممّا أطلعنا عليه القسيسون أنواعا من النقود الاسلامية منها ملوك الأندلس إلا أنني لم أستطع قراءتها . ومنها نقود من الفضة مكتوب في الوجه الأول ثلاثة أسطر الأول : لا إله إلا الله ، والثاني : الأمر كله لله ، والثالث : لا قدرة إلا بالله . وفي الوجه الثاني أيضا الأول:الله ربنا ، والثاني : ومحمد رسولنا ، والثالث : والهادي إمامنا . والظاهر أن هذه النقود هي من سكة الخليفة العباسي موسى الهادي (41) إذ ليس في الخلفاء من تلقب باسم الهادي غيره .

وفي السابع والعشرين من محرم عدنا منها إلى مدريد لأخذ الأوامر اللازمة لعمال البلاد واسترحنا مدة وجيزة . وفى غرة صفر توجهنا من مدريد

(40) عبد الملك بن زيدان بن أحمد المنصور أبو مروان السعدي : (.. 1030 هـ / 1631 م) من ملوك دولة الاشراف السعديين بمراكش . بويع بعد وفاة أبيه سنة 1037 هـ وحاول أن يضبط الملك فثار عليه أخوان له ، أحدهما الوليد والثاني محمد (المعروف بالشيخ) فهزمهما واستولى على ما كان في أيديهما من الذخائر والعدة . وقتله بعض أهل مراكش باغراء الوليد . وقيل : قتله العلوج وهو سكران . وكان فاسد السيرة والسريرة . انظر : الزركلي ، الاعلام ، ص 304 ، ج 4 .

(41) موسى الهادي : (144 ـ 170 هـ = 761 ـ 786 م) من خلفاء الدولة العباسية ببغداد . ولي بعد وفاة أبيه سنة 169 هـ . وكان غائبا بجرجان فأقام أخوه الرشيد ببيعته . واستبدت أمه الخيزران بالأمر . وأراد خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر ، فلم تر أمه ذلك فزجرها فأمرت جواريها أن يقتلنه فخنقنه . ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر . انظر الزركلي ، الاعلام ، ص 280 ، ج 8 .

مع حضرة الشهم الهمام طرخان باي إلى طليطلة وهي على مسافة ثلاث ساعات من مدريد بسير (الشمنديفير) (42) والطرق خصبة ذات مزارع يتخللها بعض الربوات .

طليـــطلة

هي مدينة كائنة على ربوة يحيط بها بعض المزروعات والغابات والربوات . وهي في الجنوب الغربي من مدريد . ويشقها نهر (التاج) (43) ، وهو مختلف العرض بين العشر والاربعين مترا إلا أنه قليل العمق لا يساعد على سير السفن ما عدا القوارب الصغيرة المعدة لصيد الاسماك . وعليه جسر يمر عليه الداخلون إلى البلد . وأمام القنطرة باب عديم لم أر عليه شيئا من الاثار يمكن الاستدلال بها على الباب . وهذا الجسر مبني بالاحجار العظيمة محكمة البنيان يبلغ طولها إلى 25 مترا وعرضها 4 امتار وهي من اثار العرب الباقية . أمّا الباب المذكور فقد سألت عنه كثيرا من الاهالي فبعضهم يقول من اثار العرب وبعضهم يقول من اثار الرومان .

وهذه المدينة ضيقة الأزقة اكثر بنيانها غير مرتفع وطرقها ليست منظمة حتى أن الأحجار التى كانت مرصوفة بها فى عهد العرب لم يبق منها إلا القليل المضمحل ولم يعتن الاسبانيوليون بها . وليس فيها من اثار العرب إلا الجسر المذكور والباب المختلف في بنائه ، وحصن على ربوة كائن أمام الجسر قد انهدم بعضه ، ومسجد جعل بيعة لليهود عند استيلاء الاسبانيوليين على طليطلة ، ثم جعل كنيسة للنصارى مدة ثم حفظه الله فعاد إلى حالته

(42) chemin de fer : السكة الحديدية .

(43) **نهر تاجه** Tage : **يمرّ في غرب إسبانيا ووسط البرتغال ليصب في الأطلسي . تقع على مصبّه ليشبونة (1،006 كم) .**
انظر : الموسوعة العربية الميسرة : ط.1 479 .

(44) **ابن هود : (ت 475 هـ 1082 م) أحمد بن سليمان بن محمد بن هود الملقب بالمقتدر بالله : من ملوك الطوائف بالاندلس ، وهو ثاني ملوك ال هود . بويع بسرقسطه سنة 438 هـ .**
انظر : الزركلي ، الاعلام ، ص 128 ، 129 ، ج 1 .

الأولى وهو الآن يزوره السواحون ثم إننا دخلنا فيه فلم أر شيئا من الكتابة ما يدلني على الباني ولا على تاريخ البناء . والقصر الذي كان لابن هود (44) على ما أظن ذهبنا إليه للتفرج والزيارة وهو على ربوة مرتفعة يكشف على النهر والبلد ، شاهق العلو وقد اصابه الحريق منذ سنة فأتلف كثيرا من مبانيه وقررت حكومة اسبانيا صرف مليونين فرنك لاعادة ما تلف منه إلى ما كان عليه .

وفي صحن هذا القصر تمثال الامبراطور (شارلكان) من نحاس مرتفع على قاعدة من نحاس أيضا مكتوب على إحدى جهات تلك القاعدة باللغة الاسبانيولية : « يجب أن أقيم بإفريقيا أو أدخل مدينة تونس عنوة » وفي الجهة الأخرى خطاب لجنوده : « إذا رأيتم سقوط فرنسي في الحرب لا تلتفتوا إليه واذا رأيتم هجوم العدو على علمي فحوموا حوله».وحول التمثال المذكور أربعة مدافع صغار اخبرني بعض الضباط الذين كانوا معنا أن شارلكان أخذها من تونس مدة حربه مع الحفصي . (45) .

وعدة أهالي طليطلة سبعة عشر ألف نفس وكان عددهم أيام العرب مائتي ألف كما صرح به بعض مؤرخي الافرنج .

ثم إننا ذهبنا مع حضرة السفير المشار إليه إلى العامل وأطلعنا على أمر الملك وأمر نظارة المعارف . وكان مصرحا في هذا الأخير بوجود كتب عربية والترخيص لنا في النظر إليها . فأشار العامل علينا بتفقد المكتبات فذهبنا وتحرينا فلم نجد أثرا فيها للكتب العربية وهذا من العجيب . إن نظارة المعارف هنالك تحسن تفقد كتبها وقد سألت قسيسا هو ناظر إحدى المكتبات

---

45) الحسن الحفصي : (ت 990 هـ / 1582 م) اخر ملوك الدولة الحفصية بتونس . وأحد اثنين اجرما فيها (هو وأبوه) وكان أخوه (أحمد بن الحسن) قد كاتب الاسبانيين وعرض عليهم مالا يؤديه لهم اذا أعانوه على اخراج الترك من تونس ، واشترط الاسبانيون أن يشركهم في حكم البلاد . فانف واعتزل . وخلفه (الحسن) فرضي بشروطهم . وأعانه أسطولهم فدخل تونس ، واحتلها الاسبانيون وهو خانع . وأذاقوا أهلها الويلات . وأقبل جيش من القسطنطينية سنة 981 هـ يقوده الوزير سنان باشا . فنشبت معارك انتهت بظفره ودخوله تونس ، فقبض على الحسن الحفصي وعاد به الى العاصمة العثمانية فأمر السلطان سليم باعتقاله . واستمر في سجنه الى أن هلك .
انظر : الزركلي . الأعلام . ص 320 . 321 . ج 6 .

عن سبب فقدان الكتب العربية فأخبرني أن نابليون الأول لما حارب إسبانيا واستولى عليها أخذ أغلب الكتب ونقلها إلى باريس وما بقي منها في المكتبات تناوشته أيدي الغوغاء في أثناء الثورات المتوالية التي حصلت في البلدان فكلما حصلت ثورة انتهبت تلك الكتب وحرق بعضها إلى أن تلاشت بالكلية .

وممّا يجب ذكره عن طليطلة معمل الأسلحة البيضاء كالسيوف والخناجر وغيرها فإنه معمل عظيم جدّا كائن في ظاهر المدينة . ومعمولاته مرغوبة في جميع الأقطار حتى أن الخنجر الذي يكون من معمولات فرنسا إذا كان يساوي فرنكا فإن الخنجر الذي يصنع في هذا المعمل يساوي عشرين فرنكا . والذي بلغني أن لنهر (التاج) المذكور تأثيرا عظيما على الحديد .

وفي الثاني من صفر رجعنا إلى مدريد للسفر منها إلى إشبيلية وذلك لعدم وجود خطوط حديدية بين طليطلة وإشبيلية . وبعدما عدنا إليها أخبرنا ترجمان السفارة أن هناك بعض العلماء من أعضاء المجلس العلمي عندهم كتب عربية فذهبنا إليهم فإذا اثنان منهم قد سافر أحدهما إلى لندرة بمأمورية لا أعلمها ، والثاني إلى تونس وسبب ذهابه إليها هو أن الحكومة بلغها وجود كتاب ألّفه بعض العلماء المتقدمين من التونسيين فيما يخصّ الحروب التي جرت بين شارلكان والحفصيين فعينته مندوبا للمجمع العلمي حتى يطلع على ذلك الكتاب . ووجدنا الثالث فرحب بنا وارانا مكتبته ووجدنا فيها بعض كتب عربية إلا أنها ليس من الغريب في شيء ، ثم إن هذا الرجل أخبرنا بإمكان وجود كتب عربية في مكتبة (الاكدمي) فذهبنا إلى دائرة هذا المجمع العلمي فرحب بنا أعضاؤه وأكرمونا وبحثنا في المكتبة فلم نجد شيئا من الكتب العربية إلا بعض أوراق اطلعت منها على حجة بيع بعد زمن الاستيلاء يقول فيها : اشترى فلان من فلان على مقتضى شريعة عيسى عليه السلام ... فدلنا ذلك على أن إسبانيا لمّا دخلت بلاد العرب ألزمت الأهالي بترك الدين قسرا .

ثمّ أطلعنا العلماء على اثار عتيقة من اثار الرومان والعرب . وفي صدر المجلس صورة الملك شارل الخامس (47) . وهو الذي أسس المجمع العلمي

---

46) نابليون الاول : (1769 . 1821) امبراطور الفرنسيين . فتح اسبانيا سنة 1807 .
انظر : الموسوعة العربية الميسرة . ط.1 ص 1812 . 1813 .

47) انظر شارلكان تعليق ص 30 .

المذكور (الأكدمي) . وهذا هو مجمع التاريخ والجغرافية ، وثمة مجامع علمية لقرى متعددة كمجمع اللغة والطب والعلوم وغير ذلك ، وكل مجمع في مدريد له شعب في سائر الولايات ومرجع الجميع لنظارة المعارف .

وفي الخامس من صفر سافرنا من مدريد إلى إشبيلية . ولمّا كان السفر ليلا لم أستطع كشف الطريق غير أنني تحققت أن ليس ثمة ثقوب في الجبال . فلمّا أصبح الصباح رأيت الطريق يخترق مزارع الزيتون وهي كثيرة جدًا إلا أن خدمتها قليلة بالنسبة لخدمة الزيتون بتونس فوصلنا إليها في ست عشرة ساعة .

اشبيـــــلية

هي مدينة كائنة في جنوب مدريد يحيط بها بسيط من الأرض ذو زرع وحدائق وبساتين . ويمر بجانبها نهر الوادي الكبير (48) . ولم يزل يسمّى هكذا إلى الآن باللغة الاسبانيولية . والمدينة حسنة المنظر ، لطيفة البنيان ، لا تتجاوز مبانيها ثلاث طبقات على حسب الطرز العربي . ويخيل لي أن الاسبانيولين قلدوا في بنيانهم العرب . وأزقتها مرصوفة بالأحجار إلا أنها ضيقة وربما تعسر السير لرجلين عرضا في ان واحد ببعض الأزقة . ويوجد فيها جادات متسعة على الطرز الجديد ، وكلها منورة بالأنوار الغازية . وعدة نفوسها 180.000 نسمة . وفي وسط المدينة منارة (49) عمومية متعددة . وهي عبارة عن بطائح متسعة فيها كثير من النخيل يجتمع إليها الناس في أوقات الفسحة .

وأمّا الآثار العربية الباقية بها هي منارة طولها ثلاثون مترا وعرضها أربعة ، وصحن مسجد قد صار مسجده كنيسة والقصر .

---

(48) الوادي الكبير : جواد لكيفير بالاسبانية . طوله حوالى 573 كم . يجري من سييرا دي كازولا نحو الجنوب الغربى عبر منطقة خصبة ويمر بقرطبة واشبيلية قبل أن يصل الى المحيط الاطلنطي . الموسوعة العربية . ط.1 ص 1936 .

(49) انها الجيرالدا : برج متصل بكاتدرائية اشبيلية باسبانيا . بنى (1163 - 1184) منذنة لمسجد كان يقوم مقام الكاتدرائية ، ثم تحولت الى برج للاجراس 1568 بعد اضافات معمارية . الموسوعة العربية . ط.1 ص 677 .

قصـــــر اشبيـــلية

هذا القصر دخلناه وجلنا فيه ، فإذا هو نزهة للناظرين وعبرة للمتفكرين . إذا رأيته استقبلك بالبشر والاستيناس وإذا استخبرته ناداك : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . وإذا تذكرت حال الأوائل تمثلت بقول القائل :

[البسيط] :

كانوا بُدورًا وكنّا في منازلهم
نهْوى حماهم ونرجو أن نُنادمهم
فليت شعري إلى أيّ القرى ظعنوا
« فأصبحوا لا ترَى إلا مساكنهم »

وهذا القصر كائن وسط بستان عظيم يشتمل على أنواع من الأشجار ذات الظل والثمر كالنخيل والبرتقال والليمون وأنواع الزهور والورد ، كما قال :

[الخفيف]

قمْ يا أخيَ تر النسيم عليلا
باكر الروض والمدام شمولا
في رياض تعانق الأيك فيها
مثلما عانق الخليلُ الخليلا
لا تنمْ واغتنمْ لذائذ يوم
إن تحت التراب نومًا طويلا

وفيه برك وغدران متعددة على أحسن ما يكون من النظام وجمال المنظر ، وعليها مقاعد ومجالس ملوك إشبيلية . وساحة القصر مرصوفة بالمرمر الأبيض ، وهو موضوع علي عمد من المرمر ، وفيه حجرات متعددة . وجميع الحيطان والسقوف والأبواب والشبابيك مزينة بأنواع النقوش المحكمة ومطلية بالذهب .

ثمّ ذهبنا إلى المكتبات فوجدنا فيها الكتب العربية نحو عشرين كتابا انتخبنا منها ثلاثة كتب ستأتي في الجدول المخصوص .

وفي الثامن من صفر الخير سافرنا منها على طريق الحديد إلى غرناطة . وكان الطريق إليها سهلا تحف به مزارع كثيرة أعظمها الزيتون .

غرناطة

هذا البلد على الجنوب الغربي من مدريد كان بسهْل متسع . يحيط به ربوات مشجرة . وعدد نفوس أهاليها الآن 60.000 نفس ما عدا الخرابات الباقية والطلول البالية التي يشاهدها المتأمل حول البلد وهي تزيد على النصف المعمور منها . وبنيانها وهيئة شوارعها متقنة غير أن الطرق فيها أغلبها غير مرصوف بالأحجار . والأنوار الغازية فيها قليلة بالنسبة إلى مدريد وغيرها . ولما وصلنا إليها ذهبنا إلى أحد الأوتيلات وهو مخصوص بسواحي الأنكليز الذين يأتون دائما لتبديل الهواء وزيارة الحمراء لما هو معلوم من جودة هواء هذه المدينة .

وفي الغد توجهنا لملاقاة العامل وسلمناه رقيم وزير الخارجية ، فرحب بنا ثم كتب أمرا إلى معلم اللغة العربية بغرناطة وأحد أعضاء جمعية العلوم (أكديمي) يأمره أن يلازمنا ويطلعنا على ما يمكن الاطلاع عليه من الكتب العربية . فتلاقينا معه وبدلالته بحثنا في المكتبات فلم نجد إلا نحو أربعين كتابا ، انتخبنا منها سبعة تنظر في محلها من الجدول المخصوص .

ثم ذهبنا لزيارة قصر الحمراء وهو من أعظم القصور الأول التي أقلتها الغبراء ، وأظلتها الخضراء . وهو كائن على ربوة عالية به حصون عظيمة . وله سور يحيط به من جميع جهاته . وهذا السور تحيطُ به أشجار ظليلة ومياه جارية بواسطة أنابيب الحديد التي مدتها العرب واستجلبت بها المياه من رؤوس تلك الجبال . ولها خرير عظيم بحيث يؤثر على من جاورها من السكان ، وربما منع غير المتعود عليه من النوم . وتفصيل الحمراء شيء لا يسعه هذا المختصر بل يجب أن يفرد بجزء خصوصي . فإن السواح الذين يفدون لزيارته في كل يوم أزيد من مائة سائح ، وأكثرهم من الأنكليز ، وكل واحد منهم يكتب شيئا أسهب أو أوجز . وزد على هذا ما بين رسائل منشورة وكتب سياحات مشهورة متداولة بين ذوي العلوم والمعارف في كل الديار . فكذلك لا يصح أن أتعرض له في هذا المختصر لخروجه عن موضوع الرحلة ولكن أقول : إن الافرنج على اختلاف طبقاتهم في العلم وحرصهم على الاقتصاد لا يمكن أن يفني الرجل منهم وقتا أو يصرف درهما في سياحة

ما لم تعد عليه بفائدة مادية أو معنوية ؛ فتهافتهم على زيارة الحمراء بهذه الدرجة يعلن لمن تبصر مقدار أهيمتها في العالم المدني ويبين مقدارها لدى المجتمع الصناعي .

وممّا يؤيد ما ذكرت أنني شاهدت جملة من المصورين قد اتخذوا لهم مكانا مخصوصا على مقربة من باب لا يشتغلون إلا بتصوير قطاعات من القصر ، كل قطعة تساوي من أربعمائة فرنك إلى خمسمائة وستمائة فرنك . وربما بلغت قيمة القطعة الواحدة إلى ألف فرنك . أما ما يساوي منها دون الأربعمائة فرنك فلا عبرة له وهو نادر الوجود . وهؤلاء المصورون كلهم أولو ثروة وغنى بهذه الأعمال . فليتأمل إلى العلم والصناعة كيف عاش بمجرد تصويرها قوم لم يكونوا لذويها في حسبان وما أحسن أن ينشد هنا :

قول القائل :

فتى عاش في معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

وقد نشر أحد العلماء الفرنسويين كتابا عظيما ضخما في هذه البلاد وغيرها سمّاه « تمدن العرب » (50) . طبعه بباريس واستوفى الكلام فيه على قصر الحمراء تحريرا وتصويرا فمن شاء أن يطلع على مقدار أهميته فليراجع ذلك أو ما شاكله . ولم أختر أخذ شيء من الكتب الافرنجية أو العربية لخروج موضوع الرحلة عن غير المشهودات .

ثمّ إنني أنقل مجرى الكلام إلى بعض ما رأيت من قصر الحمراء على سبيل الاجمال حتى لا تخلو أسطر رحلتي من هذه الفائدة بالكلية . فأقول : إن قصر الحمراء محاط بسور عظيم كما قدمنا . وبابه باب عظيم يبلغ طوله نحو 15 مترا في عرض خمسة أمتار مبني بالأحجار الضخمة الصماء التي لا تستطيع الأيام بجرّها ، والليالي بمرها هدمه ودائرته جميعها من المرمر الأبيض الصافي ، وخشب الباب المذكور على ما أظن من الصنوبر ذو

---

50) إنه يعني دون شك كتاب « حضارة العرب » لغوستاف لوبون وقد ظهر بباريس سنة 1884 . ولوبون من كتاب الغرب الذين أنصفوا الحضارة العربية وأشادوا بفضلها على الحضارة الغربية (راجع تعليق ص 13) .

نقوش كثيرة وهو مصراعان عظيمان . فإذا تأملت وجدت لوحا عظيما من المرمر في أعلى الباب مكتوبا عليها بالخط الكوفي « أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الحجاج الخزرجي (51) . والكتابة جليِة منقوشة جغرافية ولونها أبيض . فإذا دخلت منه دخلت إلى دهليز أرضه من اللبن (52) وحيطانه من الحجر ، وعلى الجانبين مراكز السيوف والرماح للحرس الملوكي الخاص .

ثمّ إنك تنتهي بعد جواز الدهليز إلى بطحاء من الأرض ذات ظل وشجر ومنظر بهيج ، تستقبلك بالوجه الوسيم ، وفيها قصر الحمراء على ما يأتي بيانه . وأمّا قصر شرلكان فإنه على شرقيَة . وهو قصر عظيم أيضا مبني بالصخور الجسيمة ، منقوش عليها جميع الآلات والأدوات العربية والاسبانولية والات الطرب وما شابه ذلك . بناه شارلكان ليضارع به الحمراء وهو يومئذ ملك إسبانيا وإيطاليا وقيصر النمسا وألمانيا وعدة ولايات من أمريكا . وهو الذي حارب « فرنسوا الأول » (53) ملك الفرنسيس وغلبه ، ثمّ استعان على الأخذ بالثأر منه بالسلطان سليمان الثاني (52) . هذا كله تيسر له ومع ذلك لم يوفق لتتميم قصره ، بل لم يتم إلى الآن وبقي ناقصا بما يشهد لملوك الاندلس بكمال الاقتدار على ممر الدهور والأعصار .

ثمّ إذا تجاوزت البطحاء وقصر شارلكان (55) جزت إلى باب يسمى « باب السلاطين » ، وهو باب عادي الطول والعرض مبني بالأحجار والمرمر مكتوب على مواجهته : « باب سلاطين » في لوح من المرمر

---

51) لم نهتد ألى ترجمته في المراجع المتيسرة .

52) اللبِن واحدته لبنة ، واللِين واللَبن : المضروب من الطين مربعا للبناء .

53) فرانسوا (Francois) : (1494 ـ 1547) ملك فرنسا (1515) حارب شارل الخامس (شارلكان) أمبراطور إسبانيا والنمسا . على أيامه أبرمت معاهدة الامتيازات الاجنبية بينه وبين السلطان سليمان القانوني (1536) انظر الموسوعة العربية الميسرة . ط.ا ص 1294 .

54) سليمان الثاني : السلطان العثماني العشرون (1687 ـ 1691) على أيامه حدثت الفتن في اسطانبول وغلبت الدولة على أمرها في محاربة النمسا . انظر الموسوعة العربية . ط.ا ص 1001 .

55) انظر تعليق ص 30 .

الأبيض فتجوزه إلى بطحاء ثانية ، على يمينك قصر الحرم ، وعليه سور فاصل له باب عظيم طوله نحو عشرين مترا وعرضه نحو ثلاثة أمتار . وعلى يسارك قصر السفراء الذي كان ملوك غرناطة ـ عليهم رحمة الله ـ يستقبلون فيه سفراء الدول . وله سور فاصل فيه باب عظيم ، وبين السورين المذكورين حوض عظيم من المرمر الأزرق طوله فوق الثلاثين مترا ، وعرضه دون العشرة بقليل ، وعمقه نحو المتر فأكثر والماء يصب إليه بأنابيب الحديد تحيط به أشجار ظليلة إلّا أنها حديثة عهد . وفي ذلك الحوض أسماك المرجان أعلمنا مسيو (سيموني) (56) أنها من نسل الأسماك التي تركتها العرب . وفي مقابلتك سور اخر عظيم محكم البناء ومتقنه . وبكل جهة من هذه البطحاء قصيدة مكتوبة بالنقش بالخط الكوفي ، نقلت منها ما استطعت ولم أقتدر على استكمالها من تأثير الزمان في بعضها حتى محيت وهذا ما استطعت نقله :

[الطويل]

تبـارك من ولّاك أمـر عبـاده
فأولـى بك الاسلام فضلا وأنْعمـا

ومنها :

فلـو خيـر الاسلام فيمـا يريـده
لمـا اختار إلا أن تعيش وتسلمـا

ومنها :

وفتَـحت بالسيـف الجزيـرة عنـوة
ففتَـحت بابـا كان للنصر مبهمـا

ومنها :

فيا ابن العلى والحلم والبأس والندى
ومن فاق افاق النجوم اذا انتمى

ثمّ عطفنا على قصر السفراء ودخنناه فإذا قاعة كبيرة مربعة الشكل تسع

---

56) Simonet .

أكثر من مائة وخمسين نفسا ، شاهقة العلو ، جميع حيطانها من المرمر الابيض المخلط بالاصفر ، والأرض مرصوفة باللبن المطلي الملون . وفي صدر القاعة مجلس مرتفع في طول أربعة أمتار في ارتفاع نصف متر تقريبا . وفي جانبي تلك القاعة حجرتان صغيرتان ، وسقف القاعة قبة مرتفعة محكمة جدًا و بين منتهى الحيطان ومبتدأ انحناءات القبة طاقات منتشرة على شكل النجوم ، مزينة بالبلور الصافي المتين . وكل الحيطان وباطن القبة مزين بالنقوش البارزة ذات الأشكال العجيبة الدالة على ما كان للدولة الاسلامية من الاقتدار الصناعي العظيم ، بحيث إنك إذا تأملت في هذه النقوش جزمت حالا بأن العلم والصناعة بلغتا الدرجة الأولى في بلاد الاندلس ، وأن الثروة والعظمة كانتا عندهم في سعة من الزمان ، ولكن الدهر يأتي على كل أثر ، على الطلاء الذهبي فأباد جلّه وأبقى أقله . وهكذا الدهر يأتي على كل أثر ، ويعقب مبتدأ كل نعيم بخبر . وفي كثير من جهات القاعة مكتوب بالقلم الكوفي البارز هذه العبارات : « لا إله الله » و« لا غالب إلا الله » و الغبطة المتصلة » و« النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير المؤمنين » . وهذه العبارات مكررة مرارا في الجدران . وفيها قصائد مكتوبة بالخط الكوفي ايضا منقوشة في المرمر نقشا بارزا لم أستطع قراءة جميعها لعلوّها وارتفاع القبة ولاضمحلال بعض الخطوط الغريبة .

ولكن أورد ما قدرت على قراءته . من ذلك أبيات من قصيدة يقال : إنها من نظم مأمور بناء قصر الحمراء يقول في مطلعها :

[الطويل]

أباهي من المولى الامام محمد
بأكرم من يأتي ومن كان ماضيا

تبيت له حرس الثريا معيذة
ويصبح معتلّ النواسم راقيا

وها أنا يا مولاي فامر بخدمة
ومن خدم الأعلى استفاد المعاليا

وكم من بناء في ذراه ترفعت
على عمد بالنور باتت حواليا

ومنها :

وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها
ولم تك في أفق السماء جواريا

بها المرمر المجلو قد شق نوره
فيجلو من الظلماء ما كان داجيا

ومنها :

ولم ار روضا منه أنعم غصنه
وأعطر أزهارا وأحلى مجانيا

وفي الحقيقة أن عبارات هذه الأبيات تدل على أن لناظمها وظيفة وارتباطا ببناء القصر . واكتفينا من هذا المنظر العظيم بهذا القدر الزهيد ، وخرجنا من البطحاء المذكورة ودخلنا من الباب الذي ذكر فيما تقدم فوصلنا إلى منظر بهيج ، ومنزه عجيب ، ترك ما رأيناه في درجة ثانوية من الاهتمام .

فإنك متى دخلت من هذا الباب خرجت إلى فسحة مربعة على أربعة صفوف من عمد المرمر الأبيض ، وطول كل عمود نحو الخمسة أمتار . وتلك الفسحة محكمة البناء ، والأرض مرصوفة من الحصباء ، وهكذا جميع أرض البطحاء . فإذا جزت الفسحة استقبلك حوض من المرمر الأبيض مربع الشكل عمقه نحو ذراع . وطوله ثلاثة أمتار في مثلها من العرض . وهو محمول على اثني عشر أسدا ، وهي قائمة على أقدامها والماء يجري من أفواهها في دائرة حاجزة فيصرف منها إلى مجار أخرى . وفي وسط الحوض عمود من المرمر أيضا يفور منه الماء أيضا ، فيصب في الحوض حتى يمتلي وما زاد على ذلك يصب من أفواه تلك الأسود . وجميع الحوض والاسود والعمود من قطعة واحدة من المرمر وهو شأن صناعي ذو بال . ومن بدائع الصنع فيه أنك لا ترى المنافذ التي تلقي ما يفيض من الحوض إلى الأسود مهما أمعنت النظر وتسمى هذه البطحاء « بطحاء الأسود » .

وهذه البطحاء مسافتها تبلغ نحو ستين مترا في مثلها تقريبا أو يزيد ، وفي محيطها دوائر مخصوصة ، فى كل دائرة منها حجرات وقاعات مختلفة المساحات طولا وعرضا وارتفاعا ، وكلها بالرخام الجيد المنقوش بأنواع النقوش البارزة ، وفي أكثرها ما تقدم من العبارات ولكن لم أر فيها شيئا من

القصائد . ولم أستطع حصر كمية الحجرات والقاعات فإن ذلك شرح يطول جدًا يحتاج إلى تحريره زمن طويل . وسقوف جميع تلك القاعات قباب إلا أنها مختلفة الشكل منها ما هو كالقباب العادية ومنها ما هو محدب ومنها ما هو غير ذلك .

ثَمّ قضينا العجب ، من اثار ملوك العرب ، وخرجنا مودعين هذه القصور العالية ، أو هي الرسوم الخالية ، بل الطلول المطلولة البالية ، ذات العبر الباقية ، والآثار الباكية . وتذكر حديث ذلك العهد القديم ، ويقول لسان الحال وهو المنطق الحكيم : جنات وعيون ومقام كريم وعيشة مطمئنة كانوا فيها فاكهين . دالوا على الأيام فعلوا ، ودالت عليهم فاعتلت ، وورثها بحكم الدور رجال قوم اخرين ، فما بكت عليهم سماء المعالي وانشقت لهم أرض التمكن وما كانوا منظرين ، شيدوا فهدموا ، وأوجدوا فعدموا ، وسبحان من له الدوام وهو أحكم الحاكمين .

[الكامل]

أشخاصهم فنيت ولكنْ ذكرهم
أبدا على مرّ الليالي باقي

وعندما خرجنا قال لي مزورنا وهو إسبانيولي : تعلم أننا استعملنا ثمانية قرون حتى زحزحنا العرب عن ملكها واستولينا على هذه القصور ؟ فقلت له : « إن الأرض لله يُورثها من يشاء منْ عباده » . ولكن هل ترى أنكم أهدرتم دماء مئات ألوف من جنودكم فيها ؟ فقال : بل ملايين ، فقلت له : إن طارقا (57) عبد موسى بن نصير (58) استولى على إسبانيا في ثلاث سنين ولم يكن معه إلا واحد وعشرون ألف مقاتل ، فاعترف بهذا المقدار .

وأخبرني أحد المصورين هنالك أن معيشتهم محصورة في رسم الحمراء،

---

(57) طارق بن زياد (50 ـ 102 هـ / 670 ـ 720 م) فاتح الاندلس . أصله من البربر . أسلم على يد موسى بن نصير فكان من أشد رجاله . ولمّا تمّ لموسى فتح طنجة ولى عليها طارقا سنة 89 هـ فأقام فيها إلى أوائل سنة 92 هـ . فجهّز موسى نحو 21000 مقاتل معظمهم من البربر لغزو الاندلس وولى طارقا قيادتهم فنزل بهم البحر واستولى على جبل كلبي Calpé الذي سمي بعد ذلك جبل طارق Gibraltar .
انظر : الزركلي ، الاعلام ، ص 313 ، ج 3 .

(58) موسى بن نصير (19 ـ 97 هـ / 640 ـ 715 م) .

وذاكرني وذاكرته وسألته عن كتاب له ضخم ألفه في حق قصر الحمراء . فأجابني أنه نفد ولم يبق لديه إلا نسخة واحدة وأنه ألفه في عدة سنين . وهو كتاب مهم مختص بالقصر المذكور ويوجد بسائر مكتبات مدريد .

وعلى القرب من الحمراء دار عظيمة تسمى دار « اسماعيل » وهي لأحد قادة الجيوش الاسلامية باقية على حالها إلى الآن .

وفي صبيحة اليوم الحادي عشر من صفر الخير توجهنا من غرناطة الى قرطبة على طريق إشبيلية وبين المدينتين مسافة أقل من ساعة بالسكة الحديدية فوصلناها بسلام .

قرطبة

دار الخلافة الأموية الاسلامية ، وتحت الحكومة الأندلسية نحو خمسة قرون ، مجمع العلماء العاملين ، والحكماء الأساطين ، والمجاهدين الأولين . وهي اليوم ليس فيها من ديار منهم . ولا راوية عنهم . إذا جاء المحمدي لبته الآثار ، وشاركته الأطلال بلسان الاندثار [!] ★ .

[الكامل]

لا أنت أنت ولا الديار ديار
خف الهوى وتقضّت الأوتار

اذا تأمل المؤمن في هذه العبرة الخالدة ، وراجع تاريخ الأندلس ، وتفرق وجهتهم ، وتمزق كلمتهم ، وتبدد طوائفهم ، بعد أن كانت العزة بالله لهم في ظل الخلافة الأموية ، علم معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « فإن كان لله تعالى في الارض خليفة فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه وإلا فمت وأنت عاض بجذل شجرة » (59) .

★ كذا بالأصل .

(59) قال البيضاوي : المعنى إذا لم يكن في الارض خليفة فعليك بالعزلة والصبر على تحمّل شدة الزمان . وعضّ أصل الشجرة كناية عن مكابدة المشقة كقولهم كان يعضّ الحجارة من شدة الالم . هذا معنى قوله (والا فمتَ وأنت عاضّ بجذل شجرة) وجذل الشجرة أي أصلها .
أنظر : عون المعبود . شرح سنن أبي داود ، للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم ابادي/.
ط 2 = 1389 ـ 1969 ج 11 ص 313 ـ 314 .

وأدرك سرّ نهيه صلى الله عليه وسلم في خطبته الشريفة عام حجة الوداع إذ يقول : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » (60) إذ لو لم يفترق ملوك الاندلس ولم تنقسم طوائفها لما تمكّن الاجنبي فيهم وأصبحت دار خلافتهم وملجأ حكومتهم كأن لم يكن بالامس . والحكم لله «إن قضى أمرا يقول له كن فيكون» .

ولنحبس عنان القلم فنقول : قرطبة هي مدينة كائنة في جنوب مدريد وشرقي غرناطة الشمالي ، كائنة في بسيط من الأرض يحيط بها بساتين عديدة ومزارع الزيتون من كل جانب . وفي خلال تلك المزارع والبساتين اثار قصور الاسلام البائدة ، وفي خلالها الطرقات المستقيمة المتسعة تمشي فيها العربات مثنى وثلاث ورباع بغاية الراحة ، وهي من اثار نظام العرب . أهلها اليوم عدتهم خمسون ألفا على أنها كانت في أيام العرب تشتمل على أزيد من مليون نفس على ما أقرّ به كثير من مؤرخي الافرنج . وبناؤها على الطرز الأوروباوي ، وأزقتها قسمان : قسم خطه الاسبانيوليون ، وقسم بقي من مخطوطات العرب . وهذا القسم أوسع وأقوم فالطريق ربما وسعت أربع وخمس عربات إلا أن الطرق الاسبانيولية أحسن وصفا منها . وما يدريك كيف كانت حالتها الأولى في أيام العرب .

ومما يعجب له المتعجبون ما أطلعنا عليه حضرة الشهم الهمام والسياسي الكامل المفضال « طرخان باي » أفندي سفير الدولة العلية بعد عودتنا من « الأسكريال » إلى « مدريد » ، وهو كتاب ضخم اسمه « نمو التمدن في أوروبا » في ثلاثة مجلدات يقول فيه مؤلفه : إن شوارع مدينة قرطبة كانت منورة بالغاز قبل أن تعرف ذلك أوروبا بخمسة أو ستة قرون ، وهو شأن عظيم ؛ إلا أننا نحتاج إلى تتبعه في تواريخ العرب إذا لم تذهب بأغلب الكتب أيدي الدوائر ، فإن الكتب الاسلامية التي كانت في هذه المدينة لم يبق لها من أثر . وكانت المواصلات فيما بينها وبين غيرها من الممالك الاسلامية منقطعة لبعد المسافة وللتباعدات التنافسية وأن مناسباتها مع الافرنج بالطبع لم تكن على ما يرام من الصفاء والمودة ، ولذلك لا يمكن أن يرجى الوقوف على ما ذكره صاحب التأليف إلا بعد تأمل وتحرّ طويل . ومن حفظ حجة على من لم

(60) البيان والتبيين للجاحظ ج 2 ، ص 33 ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة 1933 .

يحفظ ، لا سيما ولم نر من يرد مقالته هذه من علماء الافرنج مع شدة حرصهم على اكتشاف الحقائق من كل شيء .

ولما وصلنا إلى هذه المدينة نزلنا في أحد خاناتها (61) ، ويعرف بخان «الشرق» . ثم بعد الاستراحة به قليلا من متاعب السفر ذهبنا لقنصل الدولة العلية بقرطبة وهو رجل إسبنيولي ، فتلقانا وأبلغناه أمر السفارة السنية وأمر الحكومة الاسبنيولية ، فصحبنا وبحثنا في المكتبات جميعها ، فلم نجد أثرا للكتب العربية أصلا . وهو أمر عجيب فإن مجامع الكتب التي كانت بقرطبة هي من الكثرة بمكان عظيم في الزمن السالف ، حتى أن السفير المشار إليه عرفنا أن فهرست الكتب العربية الاسلامية التي كانت باقية عند هجوم الاسبانيوليين كانت خمسة وأربعين مجلدا على ما حققه من تواريخ الاسبانيوليين وغيرهم . وهو ثبت حجة ، كثير الاطلاع على العلوم والمعارف عتيقا وحديثا .

فيظهر من ذلك أن الاسبانيوليين لما دخلوا قرطبة لم يستعملوا الحكمة في استبقاء اثار العلوم ، ولم يعرفوا مقاديرها حتى ينتفعوا بها فأتلفوها عتوًا واستكبارا . ثمّ لما دخلها نابليون الأول إمبراطور الفرنسيس أخذ ما بقي بأيدي القوم فتلاشت بين المنتهبين . فلو لم ينل الأندلسيون ما نالهم من الفشل والتشتت أولا، ولم تتلاشهم إسبانيا ثانيا، لما كان من البعيد أن تهديهم علومهم إلى اختراع اشياء كثيرة من الادوات والصنائع والآلات وغيرها ، ولكن التشتت لم يترك للعلوم من ثمرة فذاقوا وبال أمرهم وكانوا عبرة للعالمين .

وممّا يستحق الذكر من اثار الاسلام في هذه المدينة أثران باقيان ، أولهما : القنطرة التي على الوادي الكبير الذي مرّ ذكره . وهي مبنية بالاحجار الضخمة بناء محكما طولها أكثر من خمسمائة خطوة تقريبا ، وعرضها نحو العشرين خطوة . وعليها حواجز حجرية بين ما بقي من المدينة وبين ما أذهبته الأيام منها . فإنك إذا تجاوزت القنطرة إلى الجانب الآخر تجد بطحاء خالية تشهد أنها كانت من العمّار بمكان ولكن اضمحلت بالمرة حتى أني لم أجد لقصر

(61) انظر أسفله تعليق (1) ص 67 .

المرحوم الخليفة عبد الرحمن الداخل المسمى بقصر الزهراء (62) من أثر يذكر وثانيهما الجامع الشهير .

جـــامع قرطبـــة

هذا الجامع هو على طرف القنطرة مما يلي الجانب المعمور من المدينة ، وهو من عجائب الدنيا . ذهبنا لزيارته ومعنا ولد القنصل ، فألزمنا القسيسون المكلفون بأمر الجامع بنزع الطربوش ولم يسمحوا لنا بغير ذلك ، وأخبرهم ولد القنصل بمأموريتنا وقدم لهم أمر ملكتهم فلم يقبلوا صرفا ولا عدلا ، فذهبنا من هنالك إلى الوالي وعرفناه بالقضية ، فأخبرنا أن الجامع صار كنيسة وأن حكمها ليس من خصائصه وإنما هو من وظيفة الأسقف ، وأنه يساعدنا باستشارته . ثمّ إنه من الغد أتانا ابن القنصل وأخبرنا بأن الأسقف قد سمح لنا بزيارة المسجد فذهبنا نزوره . وإذا هو جامع عظيم هائل يحيط به سور جسيم مرتفع لا يتجاوز الثمانية أمتار مبني بالأحجار الصلدة ، والصخور الضخمة ، وله أبواب متعددة . ودوائر الصحن مسقفة معقودة السواري على عمد من المرمر الملون بأنواع الألوان . وهي ساحة متسعة جدًا تبلغ مساحتها عشرة الاف متر مربع . والأرض كلها مرصوفة بالرخام الأبيض . والجامع الشريف غربي ذلك الصحن . وارتفاع الجامع كذلك لا يتجاوز ثمانية أمتار . وله نحو اثني عشر بابا . وحيطانه من الحجر وطوله مائة وثمانية وستون مترا في عرض مائة وخمسة وعشرين فتكون مساحته من داخله واحدا وعشرين ألف متر تقريبا . وسقفه مرفوع على اعمدة من المرمر الملون بأنواع الألوان التي تبهر الناظر وتحير الخاطر . وطول كل عمود منها أربعة أمتار . وعدة الأعمدة في نفس الجامع تسعمائة . وفي دائرة الساحة

(62) عبد الرحمان الاول : (113 . 172 هـ - 731 . 788) أو الداخل ، موسس الدولة الاموية بالاندلس (138 . 756) لقب بالداخل لانه أول من دخل الاندلس من الملوك الامويين . كما سمى صقر قريش لبأسه . لم يلقب بلقب خليفة . بنى الرصافة بظاهر قرطبة ، وجامعا كبيرا ، قام خلفاوه بتوسيعه . أما الزهراء فمدينة تقع شمالي قرطبة ، بناها عبد الرحمان الثالث او الناصر ، ثامن أمراء بني أمية بالاندلس (ت 300 . 350 هـ - 912 . 961 م) .
انظر : الزركلي ، الاعلام ، ص 113 ، 114 . ج.4 الموسوعة العربية الميسرة . ط.1 ص 1181 . 1182 .

الخارجة كما ذكرنا عمد عدتها مائتان ، فتكون الكمية ألفا ومائة عمود . وأرض المسجد من أنواع اللبن الملون المحكم . والمحراب والمنبر من المرمر الصافي منقوشان بالنقوش البديعة المُعْربة عن سرّ الاتقان الصناعي حق الاعراب . وفي المحراب مكتوب بالخط الكوفي في نقش بارز محلّى بالذهب « باسم الله الرحمان الرحيم حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » (63) ثمّ تحت ذلك منقوش أيضا بالصفة المذكورة « الامام الحكم أمير المؤمنين » (64) .

وممّا يجب أن يذكر أن الاسبانيوليين لمّا استولوا على البلاد طلب رؤساء الديانة مِن القيصر « شارلكان » أن يرخص لهم في اتخاذ كنيسة لهم في وسط الجامع فأذن لهم . ففصلوا من وسط الجامع مقدار ستين عمودا وجعلوها معبدا لهم وهي قائمة الآن . وفي مساء اليوم الثامن عشر من شهر صفر الخير رحلنا من قرطبة إلى « بلنسية » بالسكة الحديدية واستمر سفرنا طول تلك الليلة كلها إلى صبيحة الغد ، وبكل من حافتي طريق مسيرنا اشجار مختلفة ذات طيب وظل وثمار .

بلنسيـــة

هذه المدينة محاطة بالبساتين من جميع جهاتها كائنة على الجنوب الشرقي من « مدريد » وشرقي « قرطبة » ، وهي من أهم مراسي البحر المتوسط . ولها علاقات تجارية مع غالب بلدان أوروبا التي يحيط بها البحر المذكور . بنيانها منتظمة وشوارعها مستوية لا وعر فيها . وبها من السكان نحو مائة وستين ألف نفس وأعظم تجارتها : الخمر والأرز والفاكهة . إلا أن أغلب التجارة في أيدي فرنسويين وألمانيين . وأهلها على غاية من الكسل لا يحترفون

(63) البقرة ، اية 238 .

(64) الحكم بن عبد الرحمان الناصر بن محمد بن عبد الله : (302 . 366 هـ - 914 . 976 م) خليفة أموي أندلسي . ولد بقرطبة . وولي الخلافة بعد أبيه سنة 350 هـ فطمع به ملك الاسبان « اردون ابن الفونص » فتهيأ للاغارة على قرطبة . فسبقه الحكم وغزا الاسبان بنفسه ، فعاقدوه على السلم . دامت ولايته خمسة عشر عاما .
انظر الزّركلي ، الاعلام ، ص 295 ج 2 .

شيئا بحيث إن بضائع البلد كلها مستعارة من البلاد الأخرى . ولها تقدم في المعارف والعلوم لكن بالنسبة لما سواها من بعض البلاد الاسبانيولية كبرشلونة كما يأتي ذلك في بابه إن شاء الله . وفيها من السؤال خلق كثير .

ولما دخلناها نزلنا بخان (65) فرنسوي . ومن هنالك توجهنا لمقابلة قنصل الدولة العلية ، وهو من معتبري هذه البلاد واسمه « فرانسيسكو » . وهو من أكبر تجارها وأغناهم ، وله صداقة نحو الدولة العثمانية وإخلاص تام ، وهو في خدمتها من نحو خمس وثلاثين سنة ، وله اعتناء عظيم بالعرب والوافدين من التبعة العثمانية . قابلنا بغاية الاهتمام وبحثنا في دور الكتب الموجودة هنا فلم نجد للكتب الاسلامية بها من أثر .

ومن اثار العرب الباقية فيها إلى يومنا هذا بابان عظيمان من أبواب المدينة مبنيان بالحجارة القديمة المثمنة . وعلى يمين كل واحد منها ويساره حصن من حصون أهل الأندلس ، وكلاهما اتخذ سجنا بالمكان وليس للاسلام بها غير ما ذكر من أثر .

وفي الثاني والعشرين من صفر الخير بارحناها متوجهين نحو مدينة « برشلونة » فدخلناها بعد مسير يوم وليلة بعد أن قطعنا فيافيها الخصبة المزروعة ذات اليمين وذات الشمال لموقعها الشمالي من المملكة حيث إنَّ خصب إسبانيا في جهاتها الشمالية . وبها شيء كثير من النخيل والزيتون والأعناب .

برشلونة

هذه المدينة في ساحل مهم على البحر المتوسط . مبانيها وشوارعها متقنة عظيمة التجارة ، دائمة الشغل والأعمال بعكس سابقتها ، متقدمة في العلوم والمعارف والأشغال العمومية . أهلها أهل كدّ وحزم لا أثر للسؤال بها .

---

65) الخان : فندق متسع لايواء المسافرين ، وكان للخانات مداخل ضخمة ذات عقود وأبراج ، وتتكون في الداخل من صحن متسع تربط فيه الدواب ، ويحف بالصحن حجرات « حواصل » تودع فيها العروض ، تعلوها حجرات أخرى لمبيت المسافرين ، وفي الخارج حوانيت للتجارة .
انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ط.1 ص 570 .

ولشهرتها لم نر للاطناب بها من سبب . ليس فيها من الآثار العربية شيء الا منزه واحد يسمونه بالرملة ، وهو اسم باق له مسمى وليس في مكتبتها كتاب عربي . أقمنا فيها لأجل الراحة وزيارة مبانيها العمومية ثمَّ خرجنا منها بسلام بعد عشرين يوما ، وهو يوم مبارحتنا لبلاد الأندلس ، فقصدنا منها باريز بطريق سكة الحديد .

وهنا أنتهز هذه الفرصة لاظهار تأثر العرب في لغة الاسبانيوليين قبل أن أبتدىء في الكلام على باريز فأقول : ان عدة ألفاظ من اللغة العربية يستعملها الاسبانيوليون في لغتهم مع بقاء المعنى وهي : فلان ، ومنديل ، وقنطرة ، وقط ، وقصر ، وسكر ، وأرز ، وقاضي ، وان شاء الله ... وعدة كلمات أخرى لم تحضرني الآن منها أداة التعريف في المذكر كقولهم (ليبرو) أي كتاب فإذا أرادوا تعريفه أدخلوا عليه (أل) فيقولون (أل ليبرو) وأخبرنا مسيو « سيموني » معلم اللغة العربية بغرناطة أنه يوجد من الألفاظ العربية في اللغة الاسبانيولية أكثر من ثلاثة الاف كلمة ؛ إلا أن بعضها طرأ عليه تحريف كقولهم : قط (قت) ، وفي قصر (كثر) ، وفي سكر (شكر) وفي قاضي (كادي) ، وفي إن شاء الله (أوخا الله) ، وهنالك قاموس مخصوص لجميع الألفاظ العربية المستعملة عندهم في لغتهم .

ثمَّ إني سألت حاكم مدينة غرناطة : هل يوجد أناس بإسبانيا من نسل العرب مع بقاء أسماء عائلاتهم الأندلسية ؟ فأجابني : بأن ذلك لا أثر له الآن بإسبانيا البتة ، ولا يعرف أحد من الاسبانيوليين مبدأ نسبه ، ثمَّ قال لي : ان الاسبانيوليين لمَا دخلوا على العرب وافتكوا منهم أرضهم هاجر فريق منهم إلى تونس والمغرب ، وفريق هاجر إلى جنوب فرنسا وإيطاليا ، وهؤلاء صاروا فرنسويين وإيطاليين بعد ثلاثة أجيال . ومن العائلات التي تنصرت بإيطاليا عائلة تعرف « ببني نحاس » ولم أقف على أكثر من هذا القدر . والظاهر أن القوم مرت عليهم أيام صعبة واضطهاد عظيم حتى اضطر من بقي منهم لستر أصالتهم وعائلتهم ، خوفا من الحكومة بسبب الانقلابات الهائلة والحروب العظيمة .

كما أني شاهدت أيضا بقية من عادات العرب عند أهالي إسبانيا . من ذلك : لباس نساء البادية بها فإن كيفية ثوبهن كثياب نساء البوادي بتونس .

ومن ذلك أيضا ما أعلمنا به قنصل الدولة العلية ببلنسية أن الرجال الذين يشتغلون بخدمة البساتين لا يلبسون السراويل طوالا بل حددها الى الركبة مثل لباس رجال تونس . ومنها ما أخبرنا به أيضا من أنّ أهالي جنوب اسبانيا كغرناطة وبلنسية وغيرهما اذا دخل عليهم الضيف وهم يأكلون يعرضونه الى الطعام كعادات العرب بخلاف سكان شمال إسبانيا فإنهم عاملون بقول الشاعر :

[البسيط]

قوم اذا أكلوا أخفوا كلامهم
واستوثقوا برتاج الباب والدار

ومن ذلك ما شاهدته بالذات وهو أن من عاداتهم إذا دخل غريب القهوة وكان له فيها أصحاب وشرب شيئا من القهوة أو غيرها يدفع ثمنها بعض أصحابه بحيث لا يعلمه هو حتى إذا سأل خادم القهوة عن قيمة مشروبه يجيبه بأن قد دفع ولكن لا يخبره باسم الدافع مهما شدد عليه . وربما حصل ذلك بين الأصحاب منهم أيضا وهي عادة حسنة ، الظاهر أنها بقية من عادات الأندلسيين ولها شبه بالعادات المستعملة في عموم البلاد الاسلامية غربا وشرقا ؛ الا أن اخفاء اسم المُكرم فإنها من خصائص القوم ولا يمكن الجزم بأصالتها فى الأندلس الا بقرينة أصالة الكرم في العرب ، وأصالة الاقتصاد فى الاسبانيوليين .

ومن عاداتهم أيضا أنه اذا جالسهم أحدهم بالقهوة وأتى له الخادم بشيء من المشروب ومعه شيء من السكر فإنه يضع منه مقدار ما يكفيه بوعائه والباقي يضعه في جيبه والذين يرتكبون هذه الفاضحة في الأغلب هم من أواسط الناس فمن دون ذلك .

ومنها أن النساء المستخدمات بعد تتميم أشغالهن يخرجن من البيوت فيقفن عند أبوابها يستعرضن بأنفسهن المارين فإذا راودهن القاصد اتفقن معه وذهبن له الى حيث الهوى والموبقات . وأكثر ما تكون هذه الحالة أمام دور الأغنياء والأكابر ولا حرج عليهن فى ذلك مطلقا .

ومن المحاسن عندهم حسن لباس العسكر ونظافتهم واستكمال أسباب تحسين هيأتهم . ومن ذلك حال نسائهم فانهن من أجمل نساء أوروبا لامتزاج

الدم الاسبانيولي بالدم العربي وتناسب الالوان والأشكال في أغلبهن ، وهن في الحقيقة أجمل من نساء فرنسا الا أن هاتيك ربات خلاعة واداب أخرى وتتميز الاسبانيوليات بقلة التبرج وعدم مزاحمة الرجال والاختلاط معهم لقلة خروجهن وعدم تعوّدهن علي التجول الدائم والتهافت الكثير .

ومن محاسن عاداتهم أن القهوة لا تشرب الا باللبن في جميع القهلوي وربّما ان صاحب القهوة يربي عدة رؤوس من البقر بخصوص ذلك لكثرة استعماله .

ومن العادات التي أخرجت إسبانيا عن معراج الترف الأوروباوي هو أنها منقسمة الى أحزاب ملكيين وهو قسمان (كار ليست) (66) (والبربون) (67) وحزب الجمهورية . ومن غرائب أحوالهم أن كل وزارة جديدة تعزل جميع المستخدمين من التابعين لسلفها وتستخدم غيرها من أحزابها ، وكل ناظر ادارة متى توظف أخذ من حزبه مستخدمين وعزل جميع المأمورين السالفين. وهذه الأسباب الوحيدة في عدم أمن المأمورين على وظائفهم عند التقلب فتمتد أيديهم إلى اغتنام الفوائد الخاصة التي يرجون بها تأمين استقبالهم ، وداعية إلى حرصهم على الحركات والأعمال المتضاربة عند عزمهم لنوال الوظائف ولا يخفى تأثير ذلك في أحوال الهيأة الاجتماعية وما يستلزمه من تشويش الأذهان وتأخر الحوائج واضمحلالُ الحقوق .

ومن العادات المضرة أيضا عدم إجراء التعليم الاجباري في إسبانيا كما هو فى فرنسا وغيرها ، فإن ذلك قد أوجب لهم التأخر عن جميع الافرنج في العلوم والفنون والصنائع وان كانت حضريتهم لا بأس بها إلا أنها تحتاج لتنيل درجة فرنسا أو غيرها من الدول إلى مائة عام حتى أن عدم وجود المعامل الكافية للصنائع قد أوجبت لها احتمال مصاريف باهضة فإن الألبسة والأقمشة وغيرها تأتي إليها من فرنسا ولندرة وغيرهما ، ويأخذها الأهلون

---

(66) كارليست : نسبة الى دون كارلوس (أخي فرديناند) ثار في وجه ابنة أخيه إيزابلا 2 (1833 . 1839) التى كان حكمها طافحا بالفتن والمؤامرات والحروب الاهلية وانتهى بنزولها عن العرش .
انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ط.1 ، ص 137 .

(67) البربون : أسرة ملكية حكمت اسبانيا (1700) باعتلاء حفيد لويس 14 ، وهو فيليب 5 ، لعرش اسبانيا .
انظر الموسوعة العربية ، ط.1 ص 427 ، 428 .

بأثمان غالية جدًا وذلك لارتفاع مقدار الكمارك . والظاهر أن الحكومة الاسبانيولية قد عزمت على ترويج صناعتها الداخلية - ومن ذلك سلطة القسيسين فإن لهم نفوذا وقوة بين أظهر القوم ولهم تسلط على أفكار الأهالي وحظوة عظيمة عند مجلس الأمة ، وهم الطبقة العليا من السكان وبيدهم الكنائس والوظائف العلمية وهم على شيء من العلم إلا أنهم يكرهون ترقي العلوم وتعميم المعارف خلافا لما تأمر به شريعتنا الاسلامية وذلك لكيلا ينحط اعتبارهم ويضمحل نفوذهم . ومن الدليل على قوة الرئاسة الروحانية أن سفير البابا في مدريد يتقدم سفراء الدول في المقام الرسمي ومن العجب العجاب أن أولئك الرهبان كلما ظفروا بمسلم عرضوا عليه التنصر وقد حصل لي ذلك بمدينة الاسكريال لمَا كنت فيها فقد عرض عليَ أحد سخفائهم ترك الديانة الاسلامية مرارا؛ وأعتبر ذلك في حالة تعصب القوم وأجعله قياسا لغيره من جميع الأمور .

والفكر العام عند الشعب الاسبانيولي قاطبة هو الاستيلاء على سلطنة المغرب الأقصى وجبل طارق ومملكة البرتغال ثمَ صيرورتها جمهورية .

ولمَا سافرت من برشلونة متوجها إلى باريز أخذت طريق الحديد فشاهدت ما يحرض المشاهد على مماراة سكان تلك الأراضي في درجات التقدم والتنظيم فما فتر من الأرض إلا وكان به أشجار وبقول ويزداد تعجب المشاهد كلما تقدم في تلك النواحي من حيث العمران مع اتساع البلاد . كما أني رأيت في رحلتي هاته عدة الات للحراثة وغيرها من فن الفلاحة ولكن لم يسعني الوقت للاطلاع على جزئيات تلك الألات وتفاصيلها ، غير أني أعترف بأهميتها لما رأيت من المنفعة الناشئة عن استعمالها بقدر ما يقرب الانسان من مدينة باريز ، تحسن الأرض ويزداد التنظيم حتى رأيت بقرب هاته المدينة الأراضي المعدة للبقول منتشر على سطحها أواني البلور كالقباب الصغيرة (68) لتقيها من البرد ولقد يشهد المتأمل بكمال إتقان تلك الاوعية وحسن صنعها وغرابة ألوانها بما يزداد به اعتبارا في القوم ويعرف اعتناءهم بفن الفلاحة الذي هو أصل في الرفاهية البشرية وإن كان بعض الفرنسويين

---

68) تعرف اليوم بالبيوت المكيفة .

يظن أن المعامل والصنائع يجلبان الربح أكثر منها لكن هذا خطأ محض لأن المعامل والصنائع أمر قد عمَ في أوروبا والشيء اذا وصل إلى حدَه انتهى إلى ضدَه فلا بدَ من رجوع القوم كلهم أو جلهم يوما من الأيام إلى صناعة الفلاحة لأن أرضهم تساعدهم على الربح أكثر ممَا ينتج من المعامل والصنائع .

وفي الثامن والعشرين من نوفمبر سنة 1887 مسيحية وصلنا لمدينة باريس فلاحظت بهذا البلد ما يدل على تقدم القوم واعتنائهم بالتجارة وتسهيل جرَ الأثقال والمواصلات التي هي أكبر الأسباب في العمران وبهذه المواصلات كانت دولتهم كأنها بكل ناحية من أراضيها بحيث أن الأخبار سياسية كانت أو غير سياسية بل وجزئيات الأمور الخاصة وسائر ما يطرأ بأنحاء البلاد الجمهورية يرد على مدينة باريز يوميا بالجرائد والتلغراف ، فكان بذلك لمن بيده الحل والعقد علم بمدار السياسة الداخلية كأنه مقيم بين أظهر سكان فرنسا جميعا . ولا حاجة هنا إلى الاطناب بمدح تلك المدينة ناهيك بما قاله الشيخ رفاعة المصري (69) في رحلته والشيخ محمد بيرم في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار (70) ولمَا كنت متوجها إلى باريس رسميا من طرف المعارف الجليلة ناسب أن أتشرف بمقابلة الشهم الهمام الوزير الخطير حضرة أسعد باشا سفير الدولة العلية بها ، فذهبت لمحله وهو من أعز أماكن باريس موقعا وبناء وتشرفت بمقابلته بعد الاستيذان وأتحفني بما استرق به مهجتي وانس به غربتي . ولأكبح الآن عنان قلمي في مدحه ولا أطنب وأقتصر على ذكر مدينة باريس إجماليا .

فباريس لا أراها إلا جنة للنساء ونزهة للرجال وجهنم للخيل ومنفى

---

69) رفاعة بدوي رافع الطهطاوي : (1801 . 1873) احد زعماء حركة النهضة العلمية بمصر في القرن التاسع عشر ، بعد انتهاء تعلمه بالازهر ، سافر في بعثة علمية موفودة من قبل محمد علي الى فرنسا وأقام بها أربع سنوات (1826 . 1831) وسجل مشاهداته في كتاب لقي رواجا في عصره : تخليص الابريز الى تلخيص باريز .
انظر ابن أبي الضياف : اتحاف (متفرقات) وخاصة ص 45 .

70) بيرم الخامس : (1834 . 1893) ابن أخ شيخ الاسلام الرابع ، تتلمذ على الشيخ سالم بوحاجب ، ودرس بالزيتونة ولكن غلب عليه العمل السياسي والاصلاحي . ترأس الاوقاف والرائد التونسي والمطبعة الرسمية وسافر كثيرا خاصة ابتداء من سنة 1878 ممَا مكنه من تحرير مؤلفه : صفوة الاعتبار في خمسة أجزاء . واستقرَ اخر حياته بمصر حيث أصدر جريدة الاعلام بالاسكندرية سنة 1884 .
انظر : محمد الفاضل بن عاشور : أركان النهضة الأدبية بتونس . ص 21 . 27 .

للقسيسين ولا يلزم التعرض لبيان حسن نظامها وانتظامها ولطف مبانيها وكمال رونقها البهيج وتقدم ثروتها وتمدنها ومجامعها العلمية والصناعية وأنواع المحاسن التي جعلت مدينة باريس بمنزلة العقل من جسم الكرة الأرضية والضوء بالنسبة إلى المنظومة الشمسية وكيف يصح التعرض لتفصيل جمالها الأدبي والاجتماعي وهي قفانبك العالم الأوروباوي . وأما حال المواصلات فيها فأقول إن باريس على عظمتها واتساعها صارت بمنزلة دار كبيرة تسكنها عائلات كثيرة بسببها .

وفي اليوم الثالث عشر من شهر دجنبر رحلت منها في طريق الحديد الى مرسيليا وأقمت فيها ثلاثة أيام أنتظر الفابور البحري .

وفي اليوم السادس عشر منه ، ركبت متن الفابور المسمى (ارمني) من شركة (بكيت) كما تقدم في أول هذه الرحلة وسافرنا فمررنا بمرسى (مسينا) والقلعة السلطانية . وفي صباح يوم الجمعة الخامس والعشرين وصلنا إلى دار الخلافة العظمى زادها الله تعظيما . وبذلك انتهت رحلتنا هذه على أحسن حال وأكمل منوال وصلى الله على سيدنا محمد وأصحابه والال .

أسماء الكتب المنتخبة من المكتبة العمومية بمدريد قاعدة اسبانيا الان

- كتاب العين في اللغة بجزء ضخم للزبيدي تاريخ نسخه سنة 368 هـ .
- كتاب الجوامع لأبي الوليد بن رشد جرد فيه الأقاويل العلمية من كتب أرسطو بعد حذف ما فيها من مذاهب غيره .
- كتاب الخصال لابن زرب في المذهب المالكي .
- كتاب المفتاح في اختلاف القراءات السبع لابن القاسم عبد الوهاب ابن محمد .
- منتخب الواعظين .
- كتاب النكت والفروق من المدونة والمختلطة تأليف الامام عبد الحق .
- كتاب الأربعين في أصول الدين للامام الغزالي .
- كتاب المقالات السبع في الحشائش والسموم ترجمة حنين بن إسحاق .
- السفر الأول من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف في الطب لابي القاسم خلف ابن عباس ومعه السفر الثاني مبتور منه قليل .
- كتاب الأدوية المفردة ألف لابن هود أحد ملوك الاندلس
- كتاب كمال الصناعة الطبية للمعروف بالمالكي .
- كتاب الأسطقسات في الطب مترجمة حنين بن إسحاق وأصله لجالينوس .
- كتاب تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس تأليف علي ابن عبد الرحمن بن هذيل .
- كتاب تحفة الأبرار ودرة الأسرار لابن الصباغ .
- السجل المهني فيه عن شرب الخمر ألفه بعض العلماء لم يسم نفسه فيه وأرسله لبعض ملوك بني أمية بقرطبة .
- رحلة ألفها أحد سفراء دولة المغرب فيما يخص اثار العرب بالأندلس .

الكتب المنتخبة من المكتبة التي ببلد الأسكريال

ـ الهادي إلى مقاصد المرادي على الألفية مؤلفه أحمد ابن أبي القاسم القذرمي الأندلسي الغساني وهو كتاب نفيس منسوخ من نسخة مؤلفه بخزانة السلطان أحمد المنصور الهاشمي العلوي بالمغرب .

ـ شرح ألفية ابن معطي في النحو لمؤلفه عبد العزيز بن جمعة الموصلي .

ـ حاشية على تسهيل ابن مالك جيدة في فنها ومؤلفها لم يسم نفسه في أولها .

ـ كتاب المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية لأبي إسحاق الشاطبي وهو حُبس على مدرسة يسكنها الطلبة بسويقة القاضي بغرناطة .

ـ السفر الأول من كنز الطالب على شافية ابن الحاجب بخط مؤلفه ابن جمعة سعيد بن مسعود المراكشي .

ـ الصنهاجي وهو لا نظير له في فنه .

ـ شرح ابن الجباز على ألفية ابن معطي في النحو من كتب أمير المؤمنين زيدان بالمغرب .

ـ حواشي الزوزني على كتاب اللباب في النحو للسيف الاسفرائيني بخط مؤلفه بمدينة نيسابور سنة 636 هـ وهو من كتب الأمير المذكور .

ـ كتاب الفاخر في شرح جمل عبد القاهر الجرجاني تأليف العلامة شمس الدين البعلي .

ـ كتاب الذخائر للامام أبي الحسين علي بن محمد الهدوي في حروف المعاني ومعه شرح الآيات البينات لفخر الدين الرازي .

ـ النصف الأول من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم تأليف أبي الحسن نشوان الحميري علامة أهل اليمن وهو كتاب جليل في اللغة .

ـ الروض الأنسم في معاني حروف المعجم تأليف أحمد بن محمد ابن ويقلان بن نمار بن مؤنس البجائي وقال في خطبته فجمعتها أشتاتا ومحاسن وباهيت بها لئالي الأصداف وجواهر المعادن فلو كانت لئالي لفصلت بها شذور الأسماط ولو كانت رذائل لصيغت قلائد وأقراط ولو كانت أزهارا لخط

بها فرج الرياض ولو كانت روضا لما ذوى نبته ولا أضي .ا.هـ. وهو كما قال في وصفه إلا أنه ناقص شيء يسير من حرف الياء وهو من كتب السلطان زيدان .

ـ كتاب الرد على الزبيدي في لحن العوام لمؤلفه الأستاذ الأجل أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن هشام الأندلسي وهو كتاب لا نظير له في فنه .

ـ كتاب إيضاح شواهد الايضاح لأبي علي الفارسي لمؤلفه الأستاذ أبي علي حسن ابن عبد الله القيسي الأندلسي في النحو وهو كتاب عزيز غريب في فنه .

أسماء الكتب المنتخبة من المكتبة بالأندلس

ـ تحقيق المقال وتسهيل المنال في شرح لامية الأفعال لمؤلفه محمد بن عبد الله بن العباس وهو شرح نفيس غزير .

ـ شرح تصريف خلاصة ابن مالك وهو شرح نفيس ومعه إيجاز التعريف في علم التصريف ألف باسم الملك الناصر صلاح الدين لا نظير له في فنه ومعهما زوائد أخرى في علم التصريف نافعة جدًا .

ـ كتاب المدخل في تقويم اللسان وتعليم البيان مما عني بتأليفه الأستاذ الأجل العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد .

ـ ابن هشام اللخمي رواية الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن حسن بن عطية عنه رواية علي بن محمد بن علي الغافقي المعروف بابن الشاري وهو كتاب في اللغة عزيز . (!) .

ـ شرح على جمل الزجاج للخطيب أبي سعيد فرج بن قاسم بن لهب الثعلبي الأندلسي عزيز نفيس .

ـ السفر الثاني من كتاب المختصر في علم النحو لأبي الحسين عبيد الله بن أحمد بن أبي الربيع القرشي الأندلسي .

ـ كتاب تفسير المشكل من كتاب المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد مما عني بشرحه الامام سعيد بن سعيد الفارقي . كتاب نفيس قديم الخط في النحو .

ـ كتاب الشبهات على ما في البنان من التمويهات لمؤلفه الأستاذ المخزومى فى النحو .

ـ كتاب المسائل المهمة للصفى الحلى منقولة بخطه نفيسة جدًا بديعة فى اصلاح غلط العامة فى النحو .

ـ كتاب المشكلات والنبراس شرح كتاب الكراس كتاب جليل في النحو لمؤلفه قاضي الجماعة أبي اسحق الصنهاجي المشتهر بالعطار .

ـ كتاب فى العربية والأدب أءله ـ عسى سلف من أهله فشوارع .

ـ تأصيل البناء في تعليل البنا للزركشي على أبيات ابن مالك الثلاثة وهي والاسم منه معرب ومبني الى قوله أصلا وهو جزء ضخم بخط مؤلفه .

ـ تاج العروس للعارف بالله تاج الدين عطاء الله في التصوف غريب .

ـ كتاب التحفة البهية في شرح المنظومة المسماة بالعدلية في نظم الأجرومية بخط مؤلفه .

ـ شرح لب الألباب في علم الاعراب بخط مؤلفه شرح جليل حافل كامل .

ـ شرح الايجاز للامام الرضي الطبرسيني كتاب في النحو جليل .

ـ السفر الثاني من كتاب الملخص في علم النحو لابن أبي الربيع الذي مرّ ذكره .

ـ أجوبة من أمالي للفقيه الأستاذ أبي القاسم بن أبي الحسن الخثعمي الأندلسي ثم السهيلي وجلها أجوبة عن مسائل له سأله عنها الفقيه المحدث أبو اسحق ابن قرقول رحمة الله عليهما . وهي كاملة بخط العلامة محمد بن عبد الملك تاريخ كتبها موفى ثلاثين من المحرم عام 697 هـ فيه مسألة صرف عمرو .

ـ كتاب شرح الجزولية في النحو للأستاذ النحوي أبي علي عمر بن محمد ابن عمر الأزدي وهو نفيس عزيز .

ـ كتاب غوامض صحاح الجوهري للصفدي بخطه وفي اخره ما نصه القائم كتاب غوامض الصحاح للجوهري وكتب مؤلفه الفقير الى الله تملي خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي في جمادى الأولى عام 757 هـ بدمشق المحروسة والحمد لله حق حمده وصلاته على سيدنا محمد واله وصحبه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل .

فهرس الاعلام والجماعات

ـ أ ـ

فهرس البلدان والاماكن

- أ -

فهرس الكتب الوارد ذكرها في الكتاب

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- س -

- ش -

- ص -

- ع -

- غ -

- ف -

- ك -

- م -

- ن -

فهرس الابيات الشعرية

فهرس الكلمات الدخيلة

فهرس الاعلام الاجنبية

الرّحلة الاندلسيـــة
فهـــرس

سحب من هذا الكتاب 3.000 نسخة
في نشرته الأولى

هيئة القومية للنشر